قلبٌ تعلَّقَ باللهِ، فشُغِلَ عن سواه

وإنه لممَّا يبعث على الرضا والأمل، أنْ وجدْنا أنَّ الصورة الايمانية المميزة هي الطابع الذي يلمحه قارئُ أشْعار «في رحاب الأقصى»، فلا يكاد يجد قصيدةً أو بيتاً إلاَّ وهو على ذلك شاهد مؤكِّد، حتى ليحسُّ قارئٌ متذوِّقٌ، فَمُهُ سليمٌ، أنَّ الديوان شُعْلَةُ ايمان، تدفَّقَتْ، فأنارَتْ دُروبَ أفكارٍ كانتْ مِنْ قبلُ معتمة، وفتحتْ مسالكَ عقولٍ، كانتْ من قبلُ خامدةً خاملة، هو كَوْكَبُ هداية، وضياءُ حقٍّ مبين، ووخزةٌ مؤلمة في قلوب غافلين تقول: أما للسُّباتِ من آخر؟ أما للقلوبِ من صَحْوة؟ أما للعقول مِنْ وثْبة؟ وإلاَّ، تمتَّعوا باللغو وباللهو، فالنار المصير. بهذا العزم الايماني الأكيد، بهذا الحماس الذي لم يُشْعِلْهُ غيرُ تقوى، بهذا القلب الذي ما عَرَفَ استسْلاماً لغير الله، وَجَدْناه يقرُّ حقيقةً لا يجحدُها مسلم: إنَّا لله، إنَّا لدينه فداء:

وعُـدْتُ أقـطعُ عهـداً لسـتُ أخْـلِفُـهُ
بأنْ أكـونَ لإسْـلامـي وايمـانـي[1]

فإنَّما خُلِقْنا للعبادة، والشاعر المسلم لا تغيب عنه حقيقةٌ كهذه، فهو لم يقل «سأخدُم اسلامي وايماني»، لم يقلْ «سأحرص على اتباع أوامر واجتناب نواهٍ»، وإنما كان قَولُه «أكون لإسلامي وإيماني»، فالعبد الأوَّاب لله في صلاته ونسكه ومحياه ومماته، أكْلُه وشربُه باسم الله، نومُه ويقظته، حركتُه وسكونُه، كلامُه وصمتُه، إبصارُه وغضُّه، فِعْلُه وقَوْلُه، وهاجسُ نَفْسِه، كلُّه... لله، بهذا الفهم وحده يكون المرءُ ـ وبحق ـ لله العظيم المتعال.

وهلاَّ سألْنا ماذا يبتغي شاعرُنا من وراء ذلك كله، إنَّه يبادرنا فيقول:

وهـل أظـلُّ على عهـدي أوثِّـقـه
لا أبـتـغـي غير جنـاتٍ ورضـوان

---

(١) في رحاب الأقصى ص١٤٧.

أســتــرحــمُ الله في أفــياءِ كعبتــه
وأســألُ الله في سِرِّي وإعــلانــي
بأنْ يمــنَّ على نفــسي بهــدأتــهــا
حتى أمــزِّق بالــطاعــات عصياني[1]

فلقاءُ العبدِ ربَّه نظيفاً قلبُه، طاهرةً روحُه، زكيَّةً نفسُه، بيضاءَ صحيفتُه، عَطِرَةً أعمالُه، شريفةً سيرتُه، مُرْضيةً سريرتُه، جريئةً علانيتهُ، خالصةً لله وحدَه عبادتُه، ليس بالأمر اليسير. وما أجملَ قوله: «أمزِّق بالطاعات عصياني» وما أبلغه! وما أعظم أثره! فهو لا يعتزم «الحفاظ» على الطاعات، وهو لا يعتزم «هجر المعاصي»، ولكنه يريد أن «يمزِّق» العصيان و«بالطاعات»، وواضح ما في التمزيق من ازدراءٍ ومقْت، وترفُّعٍ عَنْ مِثْلِه، وفي مِثْل هذا التعبير الصادق نلمح عاطفةً متَّقدة، وإحْساساً يُشْعِلُه حرارةُ إيمان، وينقِّيه صفاءُ شُعور. ومَنْ شاء أن يستزيد فلْيقرأْ بعينِ البصيرة:

قد كنــتُ يومــاً تائــهــاً
والــيوم يا ربِّــي وَعَــيْت
ياربِّ مَنْ لي غيرُ نورِك
إنْ ضَلَلْتُ وإنْ غويت
فإذا نويْتُ الــبــرَّ يا الله
فاقْــبَــلْ ما نَوَيْت
أنــا إنْ رمــيتُ ضلالَــتي
فَبِــسَــهْــم ربِّي قَدْ رميت
إنْ كنتَ تعرضُ جنَّةً للبيع
بــالــنــفــس اشــتــريت
أو كنــتَ تدعــوني إلــهي
للرجــوع فقــد أتــيتُ[2]

(١) ص١٤٨.
(٢) ص١٦٧ و ١٦٨.

الله الله! ما أشدَّ أثرَه مِن شِعر! وما أصدقَ لسانَ شاعرٍ نفث مافي قلبه! أُقْسم أنني حين قرأْتُ الأبيات كان بي سِنَةٌ وغفلة، فما أن قرأْتُ حتى أحْسَسْتُ بحرارة تعتري جسدي، وأحسسْتُ وكأَنَّ سلكاً مكهرباً وَخَزَني، وهذه سِمَةُ الشعر الصادق الحي الذي يثير ويؤثِّر فيهزُّ.

وما أجدر شبابنا أن يدعوا ربَّهم العظيم بهذا الدعاء صباح مساء!، ما أحوجَ تلاميذنا في المدارس والجامعات أن يحفظوا شعراً هذا شأْنُه: يفيضُ بالتوبة، ويعجُّ بالايمان، أقول وفي نفسي ألم: ليت القائمين على مناهجنا التعليمية يريحوننا من أشعار سقيمة مهلهلة، أقرُّوها ليحفظها الأبناء، كما حفظها الآباء، حفظْناها وردَّدْناها، فما حرَّكَتْ فينا ساكناً، ولا أثارتْ فينا حميَّة دين، ما زادت على أنْ بثَّتْ فينا شعوراً بالميل نحو الجنس الآخر، دون أن يسلِّحونا بسلاحٍ ايماني يضبط أو يحكم، ولربَّما بثَّتْ في نفوسنا شعوراً وطنياً، ولكنه هزيل خاوٍ أجوف، كبناء من غير أساس.

أبناؤنا كعجينة في أيدينا، نشكِّلها أيَّ الأشكال نودُّ، فإذا ما اشتدَّ ساعدهم واستدَّ، صعُبَ علينا التغيير والتأثير، فكانوا عِبْئاً لا عَوْناً، فما أحسن أن نربِّيَهم على أخلاق الاسلام! ما أجمل أن ننمِّي فيهم روح ايمان قويم، ورجولةً حقَّة، ما أحوجَ أنْ نبصِّرهم بما ينفع، فنجنِّبهم ما يضرُّ، بذلك ترتقي أمتُنا، ويصلحُ حالُها، وتعظمُ هيبتُها، فتظلُّ عزيزةً مصينة.

أبيات شاعرنا ـ فوق هذا ـ، لها نغمةٌ إلى القلوب المؤمنة حبيبة، وعلى أسماعها خفيفة، وعلى أحاسيسها لطيفة، ولْنقرأ بعيون العقلوب قولَهُ مناجياً ربَّه العظيم:

إنْ كنتَ تعرضُ جنَّةً للبيع
بالنفسِ اشتريتُ
أو كنتَ تدعوني إلهي
للرجوع فقد أتيت

الله الله! أهناك أعظمُ، أو أجملُ، وأعذبُ من مناجاةِ عبدٍ مؤمنٍ لربٍّ قريب

رحيم!!، أهناك ما هو أغلى من جنَّة الله؟ لا والله، فما ثمنُها؟ ثمنُها غالٍ نفيس... النفس، أهناك داعٍ أعظم من الله؟ لا والله، فبماذا نردُّ أو نجيب؟ لبَّيك اللَّهم لبَّيك.

وشاعرنا لا يلبِّي كما لبَّى غافلون، وهو لا يردِّد باللسان ما ينفي القلب، وهل الله سبحانه ينظر إلى الألسنة والصور!، لا، إنما ينظر إلى القلوب والأعمال، فوجدْنا شاعرنا يلبِّي... بالقلب:

أذبتُ خطايَ في زمزمٍ
ولبَّيْتُ بالقلب قبلَ الفم
وطُفْتُ وفي أضلعي حُرْقةٌ
تسبِّحُ لله عَبْرَ الدم
وقبَّلْتُ ما قبَّلَ المصطفى
سلامٌ على ذلك المبْسم[1]

ومَنْ ذا الذي حَجَّ، ورأى جموعَ الحجيج تطوف حولَ بيت الله الحرام، كلٌّ سائلٌ ربَّهُ عفْواً ومغفرة، كلٌّ سائلٌ ربَّه أن يتجاوز عن سيئاته، كلٌّ يودُّ فتْحَ صفحةٍ جديدة، ليهجرَ المعاصي والآثام، كلٌّ يردِّد هذا النشيدَ الآخذَ بمجامع القلوب: لبَّيك اللهمَّ لبَّيك، لبَّيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، حتى إذا ما بزغت شمسُ يوم النحر، ردَّدوا نشيد الحق المدوِّي: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر ولله الحمد، مَنْ ذا الذي شهد مشهداً هذا حالُه فلا تثور أحبالُ فؤادِهِ، ولا تهتزُّ أوتارُ ايمانه!، ولقد وجدْنا شاعرنا يقول:

ربِّ هبْ لي مِنْ فَيْضِ نورِكَ نورا
واهْتك الله عن فؤادي الستورا
وأَلِنْ ربِّ ما قَسا مِن فؤادي
فلقاءُ الحبيب يشْفي الصدورا

---

(١) ص١٥٤.

في حمى بيتِك العتيقِ تعالَتْ
تلبياتٌ تعانِقُ التكْبيرا
تنشدُ الحبَّ والسلامَ وترجو
أنْ ينالَ الحجيجُ عَفْواً كبيرا

ولْيتأمَّل القارئُ هذه الصورةَ الجميلة اللطيفة، التي أوردَها شاعرُنا، صورةَ التلبيات التي «تعانق» التكبير، فمِنَ الحجيجِ مَنْ يلبِّي، مِنهم من يكبِّر، مِنهم من بدأ بالتلبية، منهم من أنْهى، منهم من بدأ التكبير، مِنهم من فرغ، منهم من تنطلق مِنْ فيهِ «لبَّيك»، ومنهم من تخرج عطرةً عبقة «اللهم»، منهم من يبثُّ لسانُ قلْبه باعتزاز وإباء «الله»، ومنهم مَن بثَّ وفرغ وبدأ يقول «أكبر»، وكلُّ هذا التداخل في نطق الكلمات، وكأنَّ التلبيات «تعانق» التكبيرات بحق، في مِثْل هذا التعبير الأخَّاذ المعبِّر جمالٌ أيُّ جمال.

شاعرُنا حاسبٌ حساباً ليومٍ تبيضُّ وجوهٌ فيه، وتسودُّ أخرى، ليومٍ تُسَعَّر فيه الجحيم، فإنَّ لدى ربِّنا أنكالاً وجحيماً، وطعاماً ذا غصَّةٍ وعذاباً أليماً، فوجَدْناه يسأل الرحمن الرحيم أن يرحم، ورأيْناه يناجي الربَّ العظيم سبحانه، بهذه المناجاة الصادقة:

يا إلهي ويا مجير الحيارى
مِنْ ضَلالٍ أكْرِم بربِّي مجيرا
فإذا اسودَّتْ الوجوه إلهي
جئتُ أرجوكَ نضرةً وسرورا
وإذا صارت الجحيمُ مقاماً
رُحْتُ أرجوك جنَّةً وحريرا
وإذا غُصَّت الحلوق بكأسٍ
ربِّ هَبْ لي من الشراب طهورا[1]

إنَّه يومٌ «لابيع فيه ولا خلال»[2]، ويومٌ «تشخص فيه الأبصار»[3].

---

(١) ص١٥٢.
(٢) ابراهيم ٣١.
(٣) ابراهيم ٤٢.

ومَنْ ذا الذي ينجو من وساوس شياطين الإنس والجن؟ أليست الشياطين تزيِّن للمرء انغماساً في ملذَّات وضيعة؟ أليس حولنا أشياءُ كثيرةٌ تُغْري بفسادٍ وإفْساد؟ ألَسْنا نرى في شوارعنا فساداً أيَّ فساد؟ ألَسْنا نسمع في مجالسنا العامة تباهياً برذائل؟ ألسنا نقرأُ في صحفنا مغرياتٍ بخمرٍ وربا وسَهَرٍ خليع؟ ألَمْ نوجِدْ ببيوتنا ـ وباختيارنا ـ معلِّماً للرذائل سمَّيناه «التلفاز»؟ حتى سياراتنا الكبيرة العامة رأيت فيها ما لا يسرُّ، فلقد شاء ربِّي سبحانه أن أستخدمها فترةً تقرب من عام، من الزرقاء إلى الجامعة الأردنية، وكم كان ألمي كبيراً حين وجدت السائقين ـ هداهم الله ـ ورغماً عنَّا، «يُطربوننا!»، وبكلِّ غثٍّ خليع من أغانٍ ساقطة، وشبابٌ وفتياتٌ يسمعون! وازاء هذه الهجمات الشرسة غير المبالية بدينٍ أو خلق، ازاء هذه الهجمة الحاقدة يوجِّهونها بخبث وتخطيط وكيد، ازاء هذه الهجمات التي تعصف بالأفهام ـ ومن كلِّ الجهات ـ، لا يحمي المرء من مكرها غيرُ دين، دينٍ كان وسيبقى الشوكة في حلوق الكائدين، دينٍ يكون سدَّاً يصدُّ موجات «قرامطتنا» الحاقدين، دينٍ يكون «قلعةَ رَبَضٍ» يعزُّ قهرُها لدى جحافل الغازين، ويطيش سهمُها لدى الباغين، دينٍ تتحطم أمام ضرباته مكائدُ الشياطين، دينٍ تكفَّلَ الله بنصر مَن ينصره من فوق سموات سبع، دينٍ حين حَكَم ونَطَق ارتعدت فرائصُ طواغيت الأرض أجمعين، وحين قتلْناه، صرْنا أضحوكة، دينٍ تذوي مطامعُ الدنيا كلُّها وهو باقٍ في القلوب، وشاعرنا العظم ـ كغيره من عباد الله ـ تشدُّه هذه القشور محاولَةً إبعادَه، ولكنه ـ لا لقوةٍ لديْه خارقة ـ ولكنْ بفضل الدين، بفضل القرآن العظيم يهزُّ أوتارَ القلوب، لا يأبه، لا يلين، لا يستكين، ويُدير ظهره لهذا كلِّه، ولسانُ حاله لسانُ حالِ الشاعر العربي الذي يقول:

يا ناطـح الـجـبـل الـعـالـي ليلكـمـه
أشـفـقْ على الـرأس لا تشـفـقْ على الجبـل

ولسان حال الاعشى ميمون بن قيس، حين قال في لاميَّة له مشهورة:

كنـاطـحِ صخـرةٍ يومـاً ليوهـنَـهـا
فلمْ يُضِـرْهـا، وأوهـى قرنَـهُ الـوعـل

وما لَنا وقول هذا أو ذاك، فعند شاعِرنا ما هو خير، وأشفى غليلاً، وأبرأ سُقْماً، فلقد صوَّر وسوسة الشيطان وَرَدْعَها فقال:

كلَّمـا وَسْـوَس شيطانُ الـهـوى
قلْتُ يا شيطانُ سُحْـقـاً لسـرابـك
أو دعـانـي خاطـرٌ يعـصـف بي
قلتُ يا شاعـرُ رِفْـقـاً بشـبـابـك
كيف تَشْـري ضِلَّةً بعـدَ هُدى؟
وتُـمـنِّي الـنـفسَ ظلْمـاً بخـرابـك
عُـدْ إلـى الله ورتِّـلْ آيـهُ
فلعـلَّ الله يرضـى بمـثـابـك
ربِّ لن يهـديـنـي في حيرتـي
غيرُ نورٍ وسـنـاءٍ من كتـابـك[1]

أو ليس رميُ الجمارِ إحياءً لصمود عقيدة، وانتصارِ دينٍ على وساوس شيطانٍ رجيم؟ لقد رأى شاعرُنا مشهدَ الحجيج ترمي الجمار، فلم يَغِبْ عن فِكْره قولُ المصطفى عليه السلام: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم، كما تداعى الأكلةُ على قصعتها، قالوا: أوَ مِنْ قلَّةٍ يارسول الله؟ قال لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل» وصدَق سيدي رسولُ الله عليه الصلاة والسلام، نحن نُعدُّ بمئات ملايين، وعدوُّنا لا يقارَنُ بنا عدداً، فوالله لو كنَّا ذباباً يطنُّ ما غَلَبَنا، وشاعرُنا ـ وقد عرفْناه غيوراً على حمى الله ـ رأى، كما رأيتُ، ورأى غيري، جموع الحجيج ترمي الجمار، فأثارَ المشهدُ المؤثرُ في قلبه حميَّةَ إسلامه، وتذكَّرَ الأعدادَ والأعداء، وأنَّى لمسلمٍ حَسُنَ إسلامُه أنْ ينسى أعداءَ دين الله، فكان منه هذه الالتفاتة اللطيفة، هي لطيفة، ولكنها تجرح فؤادي الدامي:

لوْ تداعـى قومـي لسـاحِ جهـادٍ
مثْـلمـا أقْـبـلوا لرمْـي الـجـمـار

(١) ص١٥٧ و ١٥٨.

لَهَـزَمْـنـا الـعـدوَّ في كلِّ أرضٍ
ودحَـرْنـا جحـافـلَ الـكـفَّـار
ولـبـاتَ الأقـصـى عزيزاً يبـاهـي
هامـةَ الـنـجـم أو عروس الـنـهـار
وَلَـسُـدْنـا في الكـون نُعْلي صُروحـاً
شامـخـاتٍ مِن عزَّةٍ وفـخـار[1]

وأضَعْنا الجهاد! فقاسيْنا الذُلَّ، أضعْناه وقَتَلْناه، وتغنَّينا بسلام هزيل ذليل، وما زالت أصداءُ مذياعاتنا ـ دام عزُّها!! ـ أثناء حرب حزيران «المجيدة!!» تتردَّد، كنَّا نسمع المذيع «يزمجر!» و«يتوعَّد!»، كان يقول لمقاتلينا: «أم كلثوم معكم في المعركة!!»، «شادية معكم!!»، «شريفة فاضل تقاتل إلى جانبكم!!» فواعيباه واعيباه، ظنوا أنهم شدُّوا أَزْرَ مقاتلين، وما دروا أنهم ألْهَوا بطبلٍ ومزمار:

وطـووا راية الـجـهـاد سكـارى
وتـلـهُّـوا بالـطـبـل والـمـزمـار[2]

وهذا يكفي ليصيبَ ذا الإحساس بجنون، يقول شاعرنا ـ لا فُضَّ فوه ـ:

لا تلُمْـنـي أنْ مسَّ عقـلي ذهـولُ
أوْ تداعـى تحـمُّـلي واصـطبـاري
فدمـوعُ الأيتـام عبْـرَ الـحـنـايا
سلَبَـتْ في الـخـطوبِ كلَّ وقـاري
وجـراحُ الأقـصـى تمـزِّقُ صدري
وعـدوُّ الاسـلام يحـتـلُّ داري[3]

أوَ مُسْلِمٌ ذاك الذي لا يتقطَّع قلبُه ألَماً على دموع الأيتام؟ أوَ مُسْلمٌ ذاك الذي لم يَغْزُ ولم تحدِّثْه نفسُه بغزو؟ يا مَن رضي بخنوع، يا مَنْ ضَلَّ، يا مَنْ زعم رجولة، يا مَنْ ادَّعى عزَّة، وحَلَفَ بشرف، يا شاعر المجون، ويا دعيَّ

(١) ص١٦١. (٢) ص١٦١. (٣) المكان السابق.

الأدب: فلْتتتلْمَذْ على الشاعر الشاعر، الشاعر الذي شعر وأشعر، شَعَرَ بأمور أمته ودينه، وأشْعَرَنا بما اعتمل في النفس، وما دارَ في العواطف، وكَمَنَ في الشعور، فجاء شعرُه نابعاً من قلبٍ يتَّقد، فلم يردَّه عن قلوبنا رادٌّ، فأين شعرٌ هذا حالُه من أشْعارِ متشاعرين لاهين، مجَّتْ أذواقُنا سُخْفَهم كلَّه، فلم يجاوزْ الآذان.

شاعرُنا يعي جيداً أنَّ الحياة ليْست ضحكاً وملءَ بطون، فما منَّا مِنْ أَحَدٍ إلَّا ومسؤول عن العمر فيم يفنيه، وعن الشباب فيم يبليه، ولا خير في شَباب لا يُغتنم، ولا عَقْلَ لمخلوق، شاعراً كان أم غير شاعر، أمِنَ مكرَ الله، فهو ملاقٍ الربَّ لا محالة، وسيُكشفُ «الرصيد» في «بنك» الله، ستُبلى السرائر، وتُكْشفُ الأغطية، وستُصبح الأبصارُ... من حديد. فوجدْنا شاعِرَنا يعي هذا فيقول:

أنـــا إنْ لم تذُب حياتـــي كفـــاحـــاً
ونـــضـــالاً يدكُّ شمَّ الـــصـــعـــاب
وشـــبـــابـــي إنْ ضاع لغـــواً وهَـــدْراً
لا جهـــاداً... فيا ضياع الـــشـــبـــاب[1]

إنَّ المتصفِّح لديوان «في رحاب الأقصى» يحسُّ أنَّ صاحبه أبا جهاد متعلِّقٌ قلبُه دائماً بالجهاد، آملاً أن يلْقى ربَّه على شعبة ايمانيَّة حقَّة، فيدخل مِنْ أفْسح أبواب الجنَّة تظلِّلها السيوف، فقد أيقن أنَّ رباط يوم وليلة خيرٌ من صيام شهر وقيامه، ولَغَدْوةٌ أو رَوْحةٌ في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما فيها، لقد وجدْناه يسأل ربَّه شهادة، ووجدْناه يحثُّ بني الإسلام كي يلبُّوا نداء الله بالإعداد للأعداء، وحثَّهم على الشجاعة والرجولة والإيمان الحق، حثَّهم على الغيرة على حدود الله، وما ذلك كلُّه إلَّا إعداداً ليومٍ ينْجلي فيه الحقُّ من الباطل، نعم، تعلَّق قلبُه بايمانٍ وجهاد، فامتلأ، والشيء إذا امتلأ ردَّ كلَّ قادمٍ أو طارق، كما قال الشاعر العذري جميل بن معمر المعروف بجميل بثينة:

لـو كـــان في صـدري كَقَـدْرِ قُـلامَـةٍ
فَضْـــلاً وَصَـــلْتُـــكِ أو أتَـــتْـــكِ رســـائـــلي

(١) ص١٧٣.

ملأَ الجهادُ قلبَه كلَّه، فلا مجال فيه لزائرٍ، أو طارىء أو طارق، ولو لم يكن قلبُ شاعرِنا كذلك، لَما كان منه هذا الموقفُ من هذه الصبيَّة، التي قصَّ علينا قصَّتها معه:

ساءَلَتْني في حمانا ظبيةٌ
أتحبُّ الشوق في عين صبيَّة؟
قلتُ لا أعشق طرْفاً ناعساً
وخدوداً وشفاهاً قرمزيَّة
إنَّما أعشقُ صَدْراً عامراً
يحملُ الموتَ ويزهو بالمنيَّة
أدركت سرِّي وقالتْ ظبيتي
أنت لا تعشق غيرَ البندقية![1]

وإنْ كنتُ لا أُخْفي عدم رضاي عن إسناد «ظبية» إلى ياء المتكلم في البيت الأخير.

ومَنْ تعلَّق قلبُه بجهادٍ تعلَّق قلبُه بالقدس، مَسْرى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، والذي عرج منه إلى السموات، فمحبَّةُ القدس محبةُ ايمان، ومحبَّةُ القدس امتثالٌ لأمر الله، حين بارك حولها، هي جنَّة الأرض برياضها، وماؤها من «زمزم»:

ياقدسُ يا أنشودة في فمي
ويا مناراً في ذرى الأنجم
في كلِّ أفقٍ منكِ تسبيحةٌ
وكلِّ شبرٍ دفقةٌ مِنْ دم
وكلِّ روضٍ نفحةٌ من شذى
وماؤكِ الرقراقُ مِنْ زمزم[2]

هذا الربط الذي جعله شاعرُنا بين القدس ومكة، بين ماء القدس الرقراق

(١) ص٢٧٠.
(٢) ص١٨.

وزمزم مكة الطاهر، بين أولى القبلتين وبين بيت الله الحرام، يجسِّد روح الآية الكريمة الأولى في سورة الاسراء.

ومن ذا الذي يقرأُ قولَ شاعرنا:

يـا قـدسُ يـا صرحَ الـعُـلى شامـخٌ
شلَّت يـمـين الـمـاكـرِ الـثـعـلبـان
قَـدْ آنَ للظلـمـة أنْ تَنْـجـلي
ويسـقطَ الـبـاغـي ويعـلو الأذان[1]

فلا يذكر الفتحَ العظيم، فتحَ مكة، عندما قُهر الفاسقون، وبُدد شملُهم، وكُسِّرت أصنامُهم، وجاء الحق وزهق الباطل، وارتفع فوق بيتِ الله العتيق نداءٌ أخَذَ بمجامع القلوب، وأثار كوامنَ الفِطرة التي فطرَ اللهُ الناسَ عليها، فعمَّ أرجاءَ مكَّة، نجودَها ووهادَها، وكان صوتاً جديداً على مكة، ولكنْ بكتْ لِمَسْمَعه عيونُ القلوب: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله. وشاعرُنا يودُّ ويطمحُ أنْ يكون لبيت الله الأقصى ما كان لبيت الله الحرام، وما ذلك على الله بعزيز.

الغاصبون «تفرعنوا»، والبغاثُ بأرضنا استنسرتْ، واستأسَدَتْ كِلاب، وفي قُدْسنا، قدس الاسلام، صالَ وجالَ وتمردَ شُذَّاذ:

إنْ دمَّـر «الـوغْـدُ» بيتـاً كنـتَ تسـكـنُـهُ
فالـقـلبُ بيتُـك والـوجـدانُ والـمُـقَـلُ
إنْ عربَـدَ الـعـلجُ في محـراب قِبْـلتـنـا
وحـلَّ في قدسـنـا الـشـذَّاذُ والـهـمـلُ
فـذاكَ مصـداقُ مـا كـنَّـا نـردِّده
يستـأسـد الـكـلبُ أو يستـنـوق الـجمـلُ
كـم هـدَّ كفُّـكَ أصـنـامـاً بـلا عـددٍ
وفـي غدٍ يتـهـاوى صاغـراً «هُـبَـلُ»[2]

(١) ص٢٣.
(٢) ص٣٩.

وهل ذاك الوغد مختلفٌ عن هذا؟ أليْسا وغْدَيْ كفرٍ وشرْكٍ وإجرام؟ وهلْ ذاكَ العلجُ مختلف عن هذا؟ أليْسا عِلْجَيْ كفرٍ وعصيان؟ إنْ كانت أيادٍ مؤمنة طاهرة كسَّرت هبل وعزَّى واللات ومناة ويغوث ويعوق، فإن الأيادي المتوضئة متأهبة لتحطِّم أصنام اليوم.

وغَدَتْ حالُنا لا تسرُّ، وغدا ذو الإيمان يتألَّم لما يرى أو يسمع، يسمع الخير فيرى الشر، ويسمع الشر وهو شر، وشاعرُنا ـ وقد أنعم الله عليه برهافة حس ـ يتألَّم لحال أمَّة الاسلام، وهذه قصيدته «باسم الشعب... ولا يدرى»[1] قدَّم لها بمقدمة نثرية، لكنَّها أشعرُ مِنْ شِعْر، قال في المقدمة:

«إلى كل الذين يزعمون أنهم يتحركون من أجل الشعب، وهم سببُ شقائهِ وسرُّ بلائه!

إلى الجلَّادين الذين أذاقوا الأمَّة ألواناً من المذلَّة، وجرَّعوها كؤوساً من الهوان!

إلى المهرِّجين عبر الأثير... المتاجرين بكرامة القلم!

إلى المعذِّبين الذين لاقوا على أيدي الطغاة مالم يلاقوا على أيدي الغاصبين...

أبعثُ هذه الصيحة في وادي الهزيمة... وتيه الضياع!!! »

وجاء في القصيدة أبياتٌ يشعرُ قارئُها أنَّ شفاه القلب تنطق، وأوتار الكبد تهتز، وشغاف الفؤاد يذوب، قال:

عدوُّنا وحَّدوا أشتاتَ باطله
وشعبُنا رغم نور الحق أشتات
سفينةُ الشعب ضلَّت لا شراع لها
والشعبُ حار وما للشعب منجاة
وفُلكُهُ فوْقَ أمواجٍ تقاذفُه
من الضلالة قد عازته مرساة

(١) ص٢٠١.

وجـيلُنـا ضاع في تيهٍ يمـزِّقـهُ
ودربُـه ضلَّ قد دكَّـتْـه مأسـاة
الجهـلُ والفقـرُ والـطغيان يسحقُـه
والـكـأسُ والـجنسُ مسـلاةٌ وملهـاة
وبـاطـنُ الـشعـب: آلام مبـرِّحـة
وظـاهـر الشعب: أفـراح وزينـات
قد هدَّه الـجـوع وانهـارتْ عزيمتُـه
وقـادةُ الـشعـب بالأكبـاد تقتـات
كم بدَّدوا الـمـالَ هدْراً في مبـاذلهم
وفـي ليالـي الـخنـا ضاعت مروءات
في كلِّ يومٍ متـاهـات تضـيِّعـنـا
وفـي الـكـوارث تطوينـا متـاهـات
شعـارُنـا الحـرب والتحـرير نرفعـه
وهـل يحـرِّر أقـصـانـا شعـارات
ودعـوة الحـرب من منَّـا يصـدِّقها
إذا تعـالَـتْ بلا حربٍ هتـافـات

تشتَّتْنا وتشعَّبْنا، فَفَضَّ اللهُ الجمع، وبدَّد الشمل، وتمزَّقْنا كلَّ ممزَّق، لفَظَتْنا أمم، وَمجَّتْنا أمصار، انشقَّتْ عصانا، وانقطع النظام، واستشرى الشر، وأُعضل الأمر، بلغ السكين العظم، واتسع الخرق على الراقع، فنسأله جلَّت أسماؤه جمع شتات أمَّة الاسلام، وضَمَّ أَلْفَتِها، وَوَصْلَ نظامها، لنكون بحق أتباعاً لمحمد عليه السلام، عندها نزهو ونهتف: العزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين.

ويبقى المؤمن في كل لحظات حياته مع الله، وفي الحلِّ وفي الترحال، وإنْ كان غافلون يَرَوْن في ركوب طائرةٍ مجالاً لمتعة حسيَّة، فلهوا بمشهد سينمائي، أو لَهَوْا بأغنية أو موسيقى، إنْ لَهَوْا بتعرُّفٍ على «رفيق!» لم يربط قلبيهما حبٌّ في الله، إنْ تلذَّذوا بشراب حرام سموه «روحياً»، فالمؤمن يظل في وادٍ غير واديهم، وفي عالَمٍ غير عالَمهم، يرى في مِثْلِ هذا السَفَرِ مجالاً لإدراك عظمة

الله في خلْقه، مجالاً لملء القلب يقيناً لا ينثني بأنَّ خالقنا وحده جدير بالعبادة، مجالاً لإدراك أسرار صُنْع الله بسمائه وأرضه وفضائه، مجالاً لتأمُّلِ هذا الخلق العظيم أبدعه العظيم، وليقول في نفسه كما قال أعرابي بسيط، البعرة تدلُّ على البعير، وآثار الأقدام تدلُّ على المسير، أفسماء ذاتُ أبراج وأرض ذاتُ فجاج، ألا يدلاَّن على السميع البصير!!، وخرج شاعرنا من رحلته ليقول كلمة خفيفة على اللسان، ولكنها ثقيلة ثقيلة في ميزان الله، خرج نقيُّ القلب ليقول: سبحان الله، ما أجملها كلمة!، وما أشدَّ أثرها في قلبٍ آمَن، ما أكثرَ ما تريحُ نَفْساً صفَتْ، وما أعظمَ ما تبعث في القلب من اطمئنانٍ حُرِمَهُ «متفرنجون»، لم تخدعْ مظاهرُ الحضارة التي فُتِن بها قومٌ ضاق أفقُهم، فلا عِلْمَ لنا إلاَّ ما علَّمنا سبحانه:

والعلم في العصر الحديث
يضجُّ في آلاته
يرتاد آفاق الفضاء
ويمتطي طيَّاته
والبحر يهدر صاخباً
والفلك في جنَّاته
والذرَّة الصغرى
مصير الكون في ذرَّاته
فخرابُه ودمارُه
إنْ ساد حِقْدُ طغاته[1]

ما أجمل الفنَّ حين يهتدي بنور الدين، ما أعظم ما يجود به الفنان المؤمن، حين يجعل من الطبيعة منبعاً لفنِّه، فإذا كان القرآن الكريم ـ كتاب الله الخالد ـ كتابَ الله المقروء المسموع، فإنَّ الطبيعةَ كتابُ الله المنظور، وحين يأخذ الفنان، شاعراً كان أم غير شاعر، فنَّه ومواده من كتاب الله المنظور، فإنَّه بذلك يربط بين فنِّه، وبين حمى ربِّه، والفنان الأصيل الصحيح، لابدَّ أنْ يكون ايمانُه قوياً، واعتقادُه وثيقاً، واتصالُه بخالقه عميقاً، وذلك كلُّه يتجلَّى في فنِّه، فلا غنى

(١) ص١٣٥.

لنا عن أن نرفع من مستوى فنِّنا، ونربأ به عن الانحراف، ما أعظم أن يتديَّنَ الفنان!، وما أعظم أن يتفنَّنَ الدِّيِّن!، فهما أمران جديران بالتقدير.

وهل من عاقل لا يرى أنَّ أكثر ما يثير اهتمام علماء المدنية الحديثة خرابٌ ودمار وإتعاس وحَرْقُ شعوب؟ العلمُ فيه خير وفيه كذلك شرٌّ، فلو سخَّرْنا الجهود لخير البشرية لأفَدْنا:

كم مجهرٍ قُربت لنا
الأبعاد في عدساته
أو هاتفٍ حملَ الحديث
مردِّداً همساته

ولقد كان جليَّاً، أنَّ شاعرنا لم يغب عن خاطره، وهو في فضاء الله، دعوةُ ربِّ الأرباب إذ يقول سبحانه: ﴿**إنَّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**﴾[1]، وكان جليَّاً كذلك حُسْنُ فَهْمِه لقوله سبحانه ﴿**ومن آياته خلْقُ السموات والأرض**﴾[2]، فوجدْناه يحذِّر سطحيِّي الإيمان عميانَ القلوب ليقول:

لا تمتروا في ذاته
فالكون من آياته
إن ضجَّ في حركاته
أو نام في سكناته
والصبحُ في إشراقه
والليل في ظلماته
والشمس في كبد السما
والنجم في رعشاته
والجو في إعصاره
إنْ هبَّ أو نسماته

(١) آل عمران ١٩٠.
(٢) الروم ٢٢.

والرعـد دوّى قاصفاً
والبرقُ في ومضاته
سبحانه قد حقّق
الإعجاز في كلماته(1)

تفاخَرْنا بعلومنا وتباهَيْنا، وما درينا خيرها من شرِّها، وأنْ ليس كلُّ ما سهَّلَ وأراح خيراً، وليس كلُّ ما شقَّ وصعُب شراً. أليستْ إمكانيَّاتُنا الخَلْقيَّة محدودة؟ أليست عقولُنا عاجزةً عن أنْ تدرك ما تخبىء الأقدار؟ أليستْ أحكامنا مبنيَّة على الظاهر؟ إنْ كنَّا لا نقنع بذلك، إنْ كنَّا نحمِّل أنفسنا أكثر ممَّا مَنَحنا ربُّنا مِنْ قدرات، إنْ كنَّا مدَّعين علم غيب، ورؤية خافٍ، إنْ كنَّا نزعم سماع ما خرج على نطاق الآذان، كنَّا حقّاً في غباء لا نُحْسد عليه، وكنَّا كمن يُطْلقُ طلقات مسدَّسه من قفِّين ـ القرية الفلسطينية ـ ليقتل مجرماً في موسكو أو بكِّين، سيضحكُ عليه العارفون. فلْيعرفْ الإنسانُ حجْمَه، ولْيدركْ قدرتَه، ولْيتفهَّمْ حقيقة ضعفه كما خلقه ربُّه، ولْيؤمنْ بالغيب كما أمره العليم الخلَّاق، هكذا يفعل من آتاه الله بصيرة مبصرة، ولذلك وجدْنا شاعرَنا يقول:

ورُبَّ أفْقٍ لمن يرتاده جَدَثٌ
وربَّ رمسٍ لمن قد ضمَّه أفق
والنور يشرق في ظلماء دامسةٍ
والماءُ مِنْ حَجَرِ الصوَّان ينبثق(2)

ووجدْناه يهيب بالشعراء، أن يكونوا ممَّن استثْناهم ربُّنا سبحانه من زمرة الغاوين المغوين، الذين أماتوا الهمم، وآزروا الرذائل، ونَشروا السموم، فوجدْناه يقول مناجياً ربَّه العظيم سبحانه:

ربِّ قد أقبلْتُ في ظلِّ رحابك
خاشع الطرف لدى نور شهابك

(1) القصيدة السابقة.
(2) ص176.

خاضــع الــنــفس ذلــيلاً صاغــراً
وفــؤادي ساجــدٌ يجثــو ببــابــك
كم بكــى يا ربِّ في سجــدتــه
إذْ يهــاب الهـول في يوم حســابـك
يرقــب الـغـفــران في يوم الـظمــا
وهــو يرجو الوِرْدَ مِنْ فَيْضِ شرابك(١)

صلاة الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله، آمنتُ بربك العظيم، وآمنتُ أنَّك الرسول الأمين، وُلِدْتَ يتيماً يا سيدي يا أحبَّ خلقه إليه، لكنك علَّمْتَ أهلَ الأرض حنان الوالدين، وكنتَ يا سيدي فقيراً، ولو دعوتَ ربَّك ليُحيل الجبلَ ذهباً لاستجاب، ولكنك قلتَ: إنَّ الدنيا كشجرةٍ، استراح مسافر قليلاً تحتها ثم تابع سفره، وحين هيَّأَتْ لك زوجُك الطاهرةُ فراشاً فيه نعومة قلت: أفلا تريدين أن أقوم الليل؟ كنتَ تسألُ أهلَ بيتك: أهناك ما آكل؟ فإنْ قيل لا، قلت: اللهم إني صائم.

لقد ملأْتَ الدنيا نوراً، وأشَعْتَ الحقَّ في أصقاع الأرض، بلَّغْتَ الرسالة، وأدَّيت الأمانة، ونصحت الأمة، كلُّ ما كنتَ عليه يشهد أنَّك نبيُّ الله، وكلُّ ما بدرَ منك يشهد أنَّك رسوله الأمين. هذه المعاني الإيمانية النبيلة، جادت بها قريحة شاعرنا المسلم، فوجدْنا قلبَه يناجي الرسول المصطفى الحبيب ليقول:

يا يتـيـمــاً علَّم الــدنـيا حنــان الأبــوين
وفــقــيراً علَّمَ الــنــاس سخــاء الــراحــتــين
قد غمــرت الكــون نوراً يتحــدى الفــرقــدين
ومــلأت الأرض بالــعــدل فعــمَّ الــخــافــقــين
حــين ســاويت بــلالاً بــعــليٍّ أخــويــن
وحــطمــت الـكفــر والــذلَّ فَدُكَّــا صنمين!(٢)

بهذا النَفَس الايماني الحازم الجازم، أثنى شاعرُنا على الرسول عليه

(١) ص١٥٧.
(٢) ص١٦٣.

الصلاة والسلام، فأجاد، وهو عدا عن الاجادة، نضح بما في وعائه، وأفصحَ عمَّا اعتملَ في داخله، فكانت بديعيته شقيقة لبديعيات حفظها أدبنا كثيرة، منها للبوصيري، وابن حجَّة الحموي وغيرهما، وبهذا يكون قد شاد عِلْماً باقياً يُنتفع به، باقياً بعد رزيَّةٍ عظمى أعظمُ منها الغفلةُ عنها، وقلَّةُ التفكير فيها، فلم ينشغلْ عمَّن يطلبُه ولا ينشغلُ عنه، ولم ينس مَنْ لا ينساه، فليتفكَّر أولـو الألباب، معشر الشيب والشباب.

دمعٌ لا كالدمع، وبكاءٌ لا كالبكاء

ودموعُ شاعرنا ليست كدموع تماسيح الأدب، الذين ملأوا أدبَهم أنيناً وشكوى، وأراقوا ماء الوجوه، طلباً لوصال حبيب مخلوق، زعموا أنهم قضوا ليلَهم ساهرين، ونصفُ أعمارهم نوم، زعموا أنَّ البعاد أنحلَهم، وبطونُهم الكبيرةُ تشهد أنهم كاذبون، زعموا أن السقم هدَّهم، وحقيقة أمرهم غير هذا كلِّه، عقولٌ معطَّلة، قلوبٌ لا تفقه، آذان لا تسمع، وكَبُر مقتاً عند الله أن يقولوا ما لا يفعلون.

شاعرنا ليس أمرُه كأُولئك، لشاعرنا دموع، ولكنها شاهدةٌ قطراتُها على عَزْمِ ايمان، وصدقِ عقيدة، ومضاءِ عزيمة، هي دموع تشهد بالإباء، إباء الضيم والهوان الذي تفاخر به قوم من حيث لا يدرون، هي دموع فيها حرارة تشهد لصاحبها بإنسانية، إنسانية حُرمها كثيرون وهم لا يعلمون، هو إنسان، ولكنْ هذَّبتْه عقيدة، وأدَّبه إسلام، وشحذ هممه ايمان، هي دموع تجاوبت مع قوله عليه السلام: «لو عرفتم ما أعرف لبكيتم كثيراً ولضحكْتم قليلاً»، هي دموعُ عارفٍ، وما أقلَّ العارفين في زمنٍ يزعم أهلُه أنهم أهلُ عِلْمٍ وأهلُ معرفة. هي دموعُ رجولة، كما كان حالُ دموع عمر، كان رجل الرجال، ولكنْ، كم كانت دموعُه غزيرة في مواقف رحمة، هي دموع تسير على خطا سيد البشرية عليه السلام، وما أكثر ما كانت دموعُه عليه السلام تبلُّ لحيته الطاهرة، هي دموع يقتفي فيها أثر نبي الرحمة، كان إذا سمع قوله تعالى: **﴿فكيف إذا جئْنا على كلِّ أمَّة بشهيدٍ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾**[1] بكى وبكى وبكى، فأبكى وأبكى صحابتَه من حوله، وما أسرع أن يبكوا كلَّما رأوه بكى.

نعم، دمعة شاعرنا ليستْ رغبةً في وصال بشرٍ، لا يُقيم ربُّنا له يوم القيامة وزناً، ليستْ دمعةً في سبيل متاع رخيص، فهو القائل:

إنـــمـــا يعـــشـــقُ الـــمـــتـــاع غرير
يســـتـــحـــثُّ الـخـــطا لنيل سراب[2]

---

(١) النساء ٤١.
(٢) ص١٧٠.

هي دمعة تمحو الذنوب، كما يطفىء الماءُ النار، وتُنيل صاحبَها رضوانَ الله، وهلْ بعدَ رِضوانِ الله سعادة!!، فهي سعادةٌ قطرةٌ منها تَعْدلُ كلَّ بحور سعادات الغافلين:

دمعةَ الوجْدِ ثرَّة التِسْكاب

كلَّمـا لذتِ في حمى المحـراب
قد سجـا الـليل واسـتبـدَّ حنـين
بفـؤادي وذاب في أعـصـابـي
حدِّثـي الـكـون عن لواعـج نفسي
وأطـيلي الحـديث في وصف ما بي
إنْ سألـتـم عن شوقِنـا وهـوانـا
كان طلُّ الـجفـونِ بعضَ الجـواب
ليس في الـدمـع ذلَّـةٌ لمـحـبٍّ
حين يهـمي لدى فسيح الـرحـاب

فلقد هام في محبة الله، فكان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما، فهجر كل متاعٍ أو لهوٍ رخيص، واهتدى بهدي كتاب الله:

أنـا مَنْ هِمْـتُ في محـبَّـة ربِّـي
لا تلومـي أو تُكـثـري من عتـابي
إنْ هجـرْتُ المتـاعَ واللهـوَ عمـري
وأنَـرْتُ الحجـا بهـدي الكتـاب[1]

والعبد حين لا ينتسب لله، حين لا يكون من عباده الصالحين، حين لا يندرج ضمن مَنْ سمَّاهم ربُّنا تعالت أسماؤه باسم «عبادي»، حين يخرج عن دائرة «عباد الرحمن»، الذي أثنى سبحانه عليهم، فوصَفَهم بصفاتٍ معيَّنة معروفة، فإنَّه لابدَّ تائه في دياجير ظلمةٍ جهْلاء، وإنْ ظنَّ أنَّه في حضارةٍ وتحرر،

(١) المكان السابق و ص١٧١.

وتخيَّل لِذاتِه سعادةً يُحْسَدُ عليها، أمَّا إنْ كان مِنْ عباد الله القانتين، فسرعان ما نجده يغسل الخطيئة بدمع، تائباً نادماً آئبا، فيعود من «عباد الرحمن»، الذين يخرُّون للأذقان سُجَّداً وبكيًا، وإذا تُتلى عليهم آيات الرحمن زادتهم ايماناً، ويبدو ـ ولا أزكِّي على الله نفسي ولا شاعرنا ـ أنَّ شاعرنا أحدُ هؤلاء، فوجدْناه يقول:

يا ربِّ إنِّـي قد غسـلْتُ خطيئـتـي بالأدْمُـع
يا ربِّ يا تسـبـيحـتـي في مسـجـدي أو مهـجـعي
يا ربِّ إنِّـي ضارع أفـلا قبـلْتَ تضـرُّعـي؟
إنْ لمْ تكـن لي في أسـاي فمـن يكـون إذن معـي؟[1]

فما أنْ يقرأ قارئٌ أبياته هذه حتى يحسَّ أنَّ الشاعر غسل الإساءَة، ومحا الذنب، وعفى على ما كان له من جُرم، وأقلع، عمَّا لا يرتضيه الرب، أوَ هناك مخلوقٌ لا يخطىء أو يخطأ![2]، وكما يقول ابن أبي الصلت:

عبـادُك يخـطَأون وأنـت ربٌّ
بكـفَّـيْكَ الـمـنـايا لا تمـوت

وهل من جوادٍ لا يعثر أو يكبو؟ هل من صارم لا ينبو؟ هل من عالمٍ لا يهفو؟ ويبقى شاعرُنا نابتَ العقل، راجحَ الحلم، رزينَ الرأي، خافضَ الجناح، يرى الناس يتكالبون على حُطام الدنيا الزائل، يتطاحنون ابتغاء عَرَضٍ هزيل، يتناحرون وراء متاع تافه، يتقاتلون على مراكز وألقاب، ولكنَّ المكانةَ التي ظلَّ يرجو غيرُ ذلك:

وعـيـنـي كـم جالَـتْ دمـوعٌ حبيسـةً
بمقتلهـا ترجـو انسكـابـاً فتُمنـع
بذلْتُ قصـارى الجهـد أرجـو مكـانةً
لديك متـى ياربّ للنـور أرجـع؟

---

(١) ص١٦٥.
(٢) يخطأ غير يخطىء.

صبرْتُ وهل أقْوى على الصبر بعدما
غدوْتُ كليلاً ليس في القـوس مَنْـزِعُ
مُنى القلب أن يحيا صفــاءً مُجَنَّحـاً
لدى نورِكَ القُدسيّ يسمو ويخشعُ[1]

أَلِفْنا شعراء لذَّات الأجساد، إذا سمعوا هديلَ حَمام تذكَّروا حبيبَهم المفارق، إذا رأوا قمراً ذكَّرهم «بقمرهم» الآدمي، إذا رأوا حتى حيوانين متحابين، تذكَّروا مَنْ «أضناهُم» بعادُه، إذا هبَّت ريحُ الصبا حملتْ لهم معها رائحتَه، وإنْ هبَّت «ريحُ الشمال» أهاجتْ فيهم الحنين والشوق إلى الحبيب الأَسير، أمَّا شاعرُنا، وقد مَلَكَ ايمانُه عليه مشاعرَهُ كلَّها، وقادَه إسلامُه لا هواه، فدموعُ شَوْقِهِ تَتَّجهُ اتِّجاهاً مغايراً لاتِّجاهاتهم، لم تتَّجه اتِّجاهاً تقليدياً ممجوجاً كما اتَّجهوا، لم تنجذب نحو منزعٍ لا يزيدُ نصيبُ ابنِ آدمَ منه عن نصيب مخلوقات الله الأخرى، دموعُ شَوْقِهِ غيرُ دموعِ أشواقِهم، والذي حرَّكَ أشجانَه غيرُ ذاك الذي حرَّك أشجانهم، وَوِجْهَتُهُ غيرُ وِجْهَتِهم، وضالَّتُه التي يُنشد غيرُ ضالَّتهم:

يا مسجد الخَيْفِ في الأقصى أحبَّتُنا
وفـي الـخـليل وفي حيفــا وبيســان
تهـفــو قُلوبُـهـم للزحـف منـطلقــاً
يحــرِّر القــدس مِنْ ظلمٍ وعــدوان
ورايةُ الــحــقِّ تعــلو في مرابـعـنــا
تطهِّــر القــدس من رجسٍ وأوثــان
وتمسـح العـار مِنْ ساحات مسجدها
وتغـرس المجـدَ فيهـا بالـدم القـاني
لقــد أثــرْتَ دمــوعَ الشـوق والَهَفي
يا مسجد الخَيْفِ مُذْ حرَّكْتَ أشجاني[2]

---

(١) ص١٧٨.
(٢) ص١٤٨ و ١٤٩.

فالخيفُ حرَّك أشجانه، والخيف لم يُنْسِه قُدْسَ الاسلام وأقْصاه، وفي ذلك بيان للخطِّ وللمعدن، وفي ذلك دليل على كريم الخليقة والطبيعة، نبيلِ السجية والشيمة، دمثِ الجبلَّة، مهذبِ الشمائل، شريفِ الأخلاق، لطيفِ السليقة، وحلوِ الدَيْدَن. هذا إطراء وتقريظ لا أبغي فيه تزكية، فالله أعلم بي وبه منِّي ومنه، ولكن، كيف لا أقول هذا، ومناقبهُ لا يجحدها عاقل، ومفاخرُه لا أمل في حَجْبها، إلاَّ كأملٍ في حَجْب عينِ شمسٍ بغربال.

أمَّا مآثرُ أدبه، فنجمة طلعتْ في سماء معان ـ المدينة الأردنية ـ فأنارتْ دروباً داكنةً في أردنِّ الاسلام، وأمصار «لا إله إلاَّ الله». وسأبقى أقول وأقول كما قال الله سبحانه: ﴿**بل اللهُ يزكِّي من يشاء**﴾[1].

---

(١) البقرة ٤٩.

obeikandl.com

العزَّة لله
عزَّةُ ايمان

وفي زمنٍ كثُر فيه سجودٌ لطواغيت أرض، وفي زمنٍ سجدْنا فيه لدينار، في زمنٍ قلَّ فيه مَنْ لم يسجد للميول والأهواء، وَجَدْنا نفراً هداه الله، فأنار له سبيل السلام، وكان صادقاً حين كرَّر في افتتاح صلواته كل يومٍ خمس مرات: «وَجَّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض، حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أُمرت، وأنا أول المسلمين»، ما أكثر مَنْ يكذبون في افتتاح صلاتهم، وأمام «الله!!»، وما أشدَّه غباءً حين يكذبون في «ابتداء!» الصلاة، ومن عباد الله الذين أدركوا هذه «الكذبة» التي شاعت في أوساط أمة الاسلام، شاعرُنا العظم، فهو القائل:

فمـا لنـا غير هتـاف الـعـلا
إنـا لغـير الله لا نسـجـد

فاستبدل كثيرون منَّا الذي هو أدنى بالذي هو خير، استبدلْنا عزَّة قومية غريبة وافدة بعزَّة الايمان، واستبدلْنا رباط الدم برباط العقيدة، واستبدلْنا تقديس بشرٍ بتقديس الله، فضاعت عزَّتُنا التي أرادها لنا الله، فقاسَيْنا الخنوع، واستيقظنا من النوم مبلَّدين، نشرب حليب الهوان:

ما كان للهـامـات أن تنـحـني
لو كان فينـا عزَّةُ الـمـسـلم[٢]

دينُنا دين عزَّة، والعزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين، والعزَّةُ لا تُنالُ بغير الايمان، ولا عزَّة حيث لا يكون ايمان، والعزَّة لا تُوزَّع ولا توهب كيفما هبَّ ودبَّ، فلقد وزَّعْنا العزَّة كما حلا لميولنا وطاب لأهوائنا، ووزَّعنا «الشهادة» مثلها من قبل،

---

(١) ص١٤.
(٢) ص٢٠.

حتى لم نتورَّع أن نعطيها لكافرين مشركين. أخذها جول وبطرس، وطبَّلْنا وزمَّرْنا، وأقَمْنا لهم أصناماً تذكارية، كتبْنا عليها «الشهيد» فلان، وأعطى من لا يملك لمن لا يستحق، كما فعل بلفور، الذي مازلنا نعيبه ونشتمه يوماً في السنة، وما أكثر «بلفوراتنا» العرب أو المسلمين! العزَّة لا تُعطى تبعاً لعصبيات بغيضة كما يفعل عربُنا ـ هداهم الله، فتجرَّعْنا كؤوسَ الذلِّ، ولنْ يعصمنا غيرُ عزَّة دين:

ويعصمُها من ذلَّةٍ عزُّ دينها
وليس لها غيرُ الشريعة عاصم[1]

وتركنا الدين، وأدرْنا للدين وللسُنَّة الظهور، وخُنَّا الأمانة، وأضَعْنا الجهاد، باحثين عن سلام مستسلم، وعجزنا، أو تعاجَزْنا، عن فهم عزَّةٍ علَّمَناها معلِّم الأمة الناصحُ عليه السلام:

سلام عليك نبيَّ الهدى
طهور الثرى عاطر الأعظم
حملْتَ الأمانة لا تنثني
وروَّيْتَ بالنور قلب الظمي
وجاهدْتَ في الله حقَّ الجهاد
وقُدْتَ السرايا ولم تحجُمِ
وأيقظْتَنا من رقاد القرون
وعلَّمْتَنا عزَّة المسلم[2]

وشاعرنا ـ لِما أنعم الله عليه من سعة أفق ـ، يُسائل وهو عليم: أين راحت العزَّةُ التي كنَّا بها يوماً نفاخر؟ فَنَسْمُو على أمم أرض الله، وماذا أصاب الأمة حتى تستكين؟ وماذا وراء هزيمتنا أمام المغضوب عليهم والضالين؟ ويقول:

فكانتْ لنا الصافنات الجياد
نصول على الظالم المجرم

(١) ص١٣٢. (٢) ص١٥٥.

وكـــانـــت لنـــا عزَّةُ الــمـؤمـنـين
نبــاهـــي بهـــا هامـــة الأنـــجـم
فمـــاذا دهـــانـــا لنرضى الهـوان
أنـــاخ على الـقـــدس في مأتم؟
يلوِّثُ بالـرجس ساحـــاتـــهـــا
ويختـــال في ليلهـــا المـظلم(١)

ولكنَّ شاعرنا لا يطول تساؤله، وسرعان ما يجد جواباً لتسائله:

رســـول الهـــدى لو تَبِعْنـــا خطاك
وكـــنَّـــا مع الله لم نُهـــزم

نعم، هجرْنا خُطا سيدنا عليه السلام، وحاربْنا الله جهاراً فأذلَّنا، وإلاَّ، ألم يُخبرْنا سبحانه بأنَّ حقاً كان عليه نصر المؤمنين؟ ألمْ يَعِدْنا بأنَّ جند الله غالبون؟ حاربْناه فخذَلَنا، نعم، وبألمٍ في القلب لا يعلمه غير الذي خلق، أقول: حاربْناه، وتباهيْنا في مهاجمته، فنحن «المنهزمون»، وتباهى علينا أرذلون، وغلبَنَا منبوذون. وكنَّا خير أمة أُخرجت للناس، فحرَّفْنا الكَلِم عن مواضعه، وأمَرْنا بمنكرٍ، ونهيْنا عن معروف، وكفرْنا بالله، ولم يبق لنا غير تشدُّق لا يفيد:

لو عرفـــنـــا الله ما شطَّت بنـــا
سبـــلُ التضليل أو ذُقنـــا الهـــوان
غير أنَّـــا أمَّـــة قد أصـبـحـــت
كلُّ مافيها. . . حديث ولسان!!(٢)

فتجرَّعْنا غصَّةً، وكأس ضيم!، وأقمْنا على ذلٍّ مُرٍّ، وأطرقْنا على مضض، غصصْنا بالجرعة، وشرقْنا بالريق، فلم نعد نجد طعماً للحياة، فمع كلِّ أكلة غصص، ومع كلِّ شربة شرق، ولكنْ ظلَّ ساقطون يظنوننا في سعادة، مطمئنين لبحبوحة عيش، ناسينَ آيةً تهزُّ أوصال الغافلين: ﴿**فلمَّا نسوا ما ذُكِّروا به فتحْنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذْناهم بغتة فإذا هم**

(١) المكان السابق. (٢) ص٢٦٦.

مبلسون، فقُطع دابرُ القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين﴾[1] نعم، نسوا، ولكنَّ الله بحكمته سبحانه لم يغلق عليهم الأبواب كما يتهيأ للساذجين، وإنَّما فتحها، وهو سبحانه لم يفتح عليهم أبواباً معينة دون أخرى، وانما فتح عليهم أبواب «كل شيء»، أبواب كل المطالب الدنيا، ففرحوا بما أوتوا، ثم كانت غضبةُ الله سبحانه، وأخذهم «بغتة»، فإذا هم متحيِّرون يائسون، واستؤصل القوم الذين ظلموا، ولم يبق منهم من أحد.

أدباؤنا مطالَبون أنْ يأخذوا بأسباب عزَّة الأمة، فهم قادة فكرها، وهم طبقتها «الممتازة»، هم الطليعة والجحفل والخميس، وهم السرية والعرمرم، أنعم الله عليهم بملَكة، دون سواهم من خلق الله، ووهبهم قدرة فكرية فائقة، فرأوا ما لا يرى الانسان العادي، فننتظر منهم بعْثَ الوعي في هذه الأمة علَّها تقف ـ وبصلابة وبعزم ـ، ونرجو أن يرشدوا الضالين والحائرين، وأنْ ينيروا سُبُلَنا الحالكة، لتثب ـ كما وثبت من قبل ـ، فتزيل السبات، وتسترد الكرامة والعزَّة، وتستعيد الحمى من غاصبيه، وتُخْرِجَ الطواغيب العاتين من حيث أخرجونا، والأرضُ والعزَّةُ بغير السيوف لا يستعادان:

دعـوةٌ للفـلاح في انـبـثـاق الـصـبـاح
ونـداء الـكـفـاح في الـربـى والـبـطاح
عنـد زحـف الجنـود
دعـوةٌ للجـهـاد في الـربـى والـوهـاد
بالـسـيوف الـحـداد تُسـتـرَّد الـبـلاد[2]

نعم، نعم:

بالـسـيوف الـحـداد تُسـتَـرد الـبـلاد

بهذا وحده شمسُ العزة لا بدَّ ساطعة، وستبرُزُ من حجابها، وستَكْشف الجلباب وتحسِرُ القناع، وبعدها ستجنحُ شمسُ الذلِّ، وسيَجْفلُ الليل، وسيَنْفَلقُ الفجر، ويلوحُ الخيطُ الأبيض، وسيتبسَّم الصباح لنا قائلين: لا إله إلا الله، الحمد لله.

---

(١) الأنعام ٤٤ و ٤٥.
(٢) ص٢٤٥.

أخوَّة دين لا عصبيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض**﴾[1] ورباط الدين الرباط الذي لا تنفصم عراه، ويتحطَّم أمامه كلُّ رباط، فَـ «إنَّما المؤمنون أخوة»، والأخوَّات المصطنعة الهزيلة ما أسرع أن تتحطم!، وما أسرع ما تبدو فيها القواعد واهية واهنة!، وتستحي من نفسها، ولا تبقى صامدةً غيرُ أخوَّة الإيمان، تظلُّ قلعةً تربض في القلوب، وتظلُّ «لا إله إلا الله» جواز سفرٍ يتحدى كلَّ حدود، وكلَّ قيود، تُحرِّك أوتارَ القلوب، وترقص لِوَقْعها أحبالُ الأفئدة، فيبقى المسلم للمسلم كبنيان مرصوص، يشدُّ بعضُه بعضاً، ورغم شعارات القطيعة، وهتافات الضياع. وشاعرنا ـ كما بدا من شعره وأدبه ـ من هؤلاء، فحين قرأتُ قصيدته «مع العيد»[2] التي يقول فيها:

العيدُ أقبـلَ والـذكـرى تؤرِّقني
وليس في العيد غيرُ الحزن والسقم
ما عاد في مقـلتي طيفٌ يداعبني
غيرُ الأحبَّة في «الأقصى» وفي «الحرم»
وغـيرُ أمٍّ غَدَتْ تشتـاق والـهفي
لهمسـة الحبِّ والإلهام ملء فمي
وغير وجـه أبٍ بالـطهـر مؤتلقٍ
لم تطفـه عاديات الشيب والهـرم
وقلب أختٍ جريح ذاب من كمدٍ
ينـوح من شدَّة الـتبـريح والألم
وغير ثغـرٍ رضيٍّ في ابتسـامتـه
قد أصبح اليوم حزنـاً غير مبتسم
وصـورةٍ لصـغـير ظلَّ يرقبـني
متى أعـودُ؟ وعين الـطفل لم تنم

(١) التوبة ٧١.
(٢) ص٧٩.

قرأْتُ تقديماً نثرياً كتبه للقصيدة، بدأ التقديم قائلاً: «إلى طيف الحبيب ناجي. . .» وللوهلة الأولى ظننته يريد الشاعر المصري المعروف ابراهيم ناجي، فأصابني ذهول، وانتابني ما يشبه قشعريرة، وبتُّ أسائل نفسي: ماذا أصاب شاعرنا؟ وأين هو من ذاك؟ وهل يجامل شاعرُنا صاحب «الأطلال» التي «أطربتْنا!» بها عجوز التخدير، مغنِّية الضياع، أم كلثوم! هل نسي شاعرُنا أبيات ذاك الفاجرة:

هل رأى الحبُّ سكارى مثلنا
كم بنينا من خيالٍ حولنا
وضحكْنا ضحكَ طفلين معاً
وعدَوْنا فسبقنا ظلَّنا
وانتبهْنا بعدما زال الرحيق
وأفَقْنا ليت أنَّا لا نُفيق
يقظة طاحت بأحلام الكرى
وتولَّى الليل والليل صديق

التي ردَّدها شبابُ المجون وفتياتُ الجهل. ولكنَّ ذهولي أخذ يحتضر، بعد أن تابعتُ قراءة المقدمة، وقرأْتُ قوله فيها «في سجنه الضيِّق في الوطن المحتل والأرض الطهور. . . إليه وقد صَبَرَ صَبْرَ الرجال، وثبت ثبات الأبطال» أدركْتُ بَعْدَها أن «ناجيَهُ» غيرُ «ناجيهم»، وعادت لي عافيتي، وعُدْتُ أتلذَّذ بقراءة أبياته بعين قلبي:

ناجي يناجي قلوباً بالهدى عَمُرَتْ
القيدُ يقتاتُ من زندي ومن قدمي
مَنْ لي بأجنحةٍ رفَّتْ على فننٍ
تجود بالحن والتغريد والنغم
تحوِّم اليوم في الأقصى وصخرتُه
تئنُّ وا أسفا مقطوعة الرحم

إنْ أطــربَ العــودُ آذانــاً وأفئـدةً
فأُذنُه عن سوى «التكبير» في صممِ

أيقنتُ بعدها أنه أخٌ له في الله، وأدركْتُ أنَّ شاعرنا «طلَّق» النفاق والتلوُّن، فليس ناجي هذا زعيماً يتقي شاعرُنا شرَّه، بل هو أخوه، وهو ليس أخاً في قومية ابتدعْناها، أو عنصرية زعمْناها، وانما هو أخ في عقيدة، رفيق دَرْب، وكيف لا يكون بينهما أخوَّةٌ، وناجي هذا لم يتخذ قومية أو عنصرية إلهاً من دون الله، ولم يستبدل حبَّات تراب بدينه أو عقيدته، فوجدْناه يقول فيه:

قد هامَ قلبُــك بالقــرآن منـطلقـاً
وهـام غيرُك بالـطاغـوتِ والصنمِ

ولعلَّ قارىء الأبيات يحسُّ ما اعتمل في نفس صاحبها من إحساس مرهف متَّقد، وشعور متوثِّب، وانفعال حيّ، ليخرج بعدها قائلاً في نفسه: ما أصدق الشعر حين يعبِّر عن خلجات النفس!، ما أجمله حين يصوِّر الشعور!، وما أسهل أن يدخل شِعْرُ القلوبِ القلوبَ!!، وما أحرى شِعر اللسان أن تردَّه طبلاتُ الآذان!، ما أجمل قول شاعرنا «ناجي يناجي قلوباً»، والقيد «يقتات» من الزند والقدم، وصخرة الأقصى «مقطوعة الرحم»، وأذنه عن سوى التكبير «في صمم»، فلا يحرِّره غير «الله أكبر».

رباط الأخوَّة الإيمانية أساسُه الايمان، والتحابُّ في الله يستلزم صبراً لِحُكْمه، وعدم ارتجاء غيره:

ناجـي فديتــك يا أغـلى أحبَّتنــا
لا ترتجي غير ما في «النون والقلم»
فاصبــر لحكم إلــهٍ ليس يظلمنـا
في ساحِهِ أعطيات الجود والكرم

وأنَّى للمؤمن أن يتواكل ولا يتوكل، أنَّى له أن ييأس من روح الله، أنَّى له أن يتغافل عن أوامر الله: «وأعدُّوا» و«قاتلوا» «وأخرجوهم»:

غداً زحـوف الهـدى **تمضي بلا وجلٍ**
تجنـاح خصـمـك بالنيران والحمم
تطهِّـر الأرض من أعـداء **أمـتـنـا**
وتزرع الأمن في «يافا» وفي «العجمي»

هذه الأخوة ذاتُها دفعتْ بشاعرنا أنْ يوجِّه «تحيَّةً للجزائر»[1]:

لاتـعجبنَّ إذا اشتــدَّ الحنين لهم
فالأهـل أهلي والإخـوان إخـواني
جزائـر المجـد والإيمـان معـذرة
إنْ كنْتُ قصَّرْتُ في شعري وتبياني
فشعبُـك الحرُّ فوق الشعر موضعه
قد شاد صرح المعالي بالدم القاني
بالأمس سطَّر للدنـيا بطولَـتـه
وزلـزَلَ البغي والبـاغي بايمـان
والـيوم يكـتبُ للدنيا حضـارَتـه
لا يرتضي غير «تـوحيد وقـرآن»

فأهل الجزائر أهل له، وإخوان في العقيدة، والجزائر «جزائر ايمان»، وشعبُها لم يشد صرح معاليه بسلام ذلٍّ، وانَّما شاده «بالدم القاني»، وشعبُها لم يُزَلْزِل بَغْياً أو باغياً «بقومية أو عنصرية»، وانما هو زلزنهُ «بايمان»، فهو اليوم «لا يرتضي غير توحيد وقرآن.»، كلُّ هذا أوجدَ بين شاعرنا وبين الجزائريين أخوَّةَ ايمان حقَّة، لا تنفصم عراها على مرِّ الأيام، وكرِّ الدهور.

هذه الأُخوَّة حَدَتْ بشاعرنا أن يثني على إخوانٍ له في سلطنة عُمان، ذلك أنهم:

---

(١) ص١١٦.

يُعــادون لله الــطغــاةَ ليرعــووا
وما هادنوا عِلْجاً ولا الكفرَ سالموا
قلوب الهدى والبرِّ كانت عروشهم
وتيجـانهم فوق الـرؤوس العمائم
وفـي أرض عَمَّــان الأَبـيَّة إخــوة
لكم يا أبــاة الضيم صيد أكــارمُ
يحبُّـونكم في الله والحق والهدى
وحــبُّ لغــير الله والــحـق آثـمُ
يوحِّــدنـا القـرآنُ إنْ فرَّق النـوى
ويجمعنا في البرِّ والجود هاشم[1]

فهم إنما يعادون الطغاة «لله»، وهم «لم يهادنوا علجاً»، «ولا الكفر سالموا»، أمَّا عروشُهم فكانت «قلوب الهدى والبرِّ»، وأمَّا تيجانهم فهي «العمائم»، وإخوتهم في عمَّان ـ العاصمة الأردنية الحبيبة ـ يحبُّونهم «في الله»، فكلُّ حبٍّ لغير الله «آثم». ولعلَّ سائلاً يسأل: وما الذي يجمع بين عمَّان وعُمان؟ ولن يطول التساؤل حتى يجد قول الشاعر: «يوحِّدنا القرآن إنْ فرَّق النوى.»، الله الله ما أصدقه من تعبير!!، وهل غير القرآن يجمع أو يوحِّد!!، القرآن القرآن، الذي جعل متقاتلين متناحرين بنعمته إخواناً متحابين، القرآن الذي ما أنْ يسمع مسلمٌ مسلماً روسياً كان أم تركياً أم أفغانياً أم فلبينياً يردد آياته حتى تنفتح أمامه كلُّ نوافذ القلوب، ويودُّ لو احتضنَتْه رموشُ العيون.

الحب الصحيح المتين النقي لا يكون إلا في الله، وإلا كان «ضحكاً على الذقون»، وكان «قشوراً» سرعان ما تموت، وكان مُتعاً آنيَّة كسراب خادع أو كفقاعات ماء، الحب الحب لا يكون إلَّا في الله، بذلك وحده نضمن رضا الله، وبذلك وحده نكفل أنْ نكون من الذين يظلُّهم الله بظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه.

ما مِنْ عاقلٍ ينظر إلى الأمور بعين العقل إلَّا ويرى أنَّ الحب الذي قام على

(١) ص١٢٩ وما بعدها.

غير رباط العقيدة رباطه واهٍ، وركنُه مهترىء، وسرعان ما يتحول إلى الضد، لأنَّه إنما بُني على «مصلحة» و«انتفاع»، بخلاف حبِّ القلب قام على أساس دين، تزول جبال ولا يزول، نرى مسلماً من تلمسان، وآخر من عبسان، على سبيل المثال لا الحصر، لم يلتقيا البتَّة، لم تجمعهما منفعة دنيوية، لم يربطهما رباط دم، لم يجمعهما بيت، ولم يظلِّهما سقف، وهما مع ذلك كلِّه قريبان نسيبان، جمعهما رباطُ دين لا تنفصم عُراه، هما فَرْعا نبعة إسلام، غُصْنا دوحة ايمان، هما رضيعا لبان عقيدة، أخوا صفاء، وسليلا وفاء، وأليفا وُدٍّ، وإنْ أعلن غيرَ ذلك مغرضون، ونشر خلافَه فارغون، وجادلَ بما لا يعلم جاهلون، سيبقى الرباط الديني راسخاً وإنْ بعُدت الديار، وشسَعت المنازل، ونأتْ الربوع، وعزب المقام، وسيبقى «التوحيد» ملْءَ أسماعِ القلوب، وأبصار العقول.

لا يأس ولا قنوط

وهل مِنْ حيٍّ على وجه الأرض لا يرى حوادث مريرة منغِّصة ولدتْها ليالٍ حُبالى سود!!، هل من قارىء لا يرى سفينتنا الأدبية قادها ربابنة تائهون!، هل مِنْ متذوق أدبٍ لا يرى أمْرَنا الأدبي أُسند إلى غير أهله! فشرعوا لنا في أدبهم ما لم يأْذن به الله، فحلَّلوا وحرَّموا، وكما ترغب الأهواء، راغبين عن الهدى رغبةً في الهوى، فشاعت في آداب أمتنا موبقات! لهوا وألهوا، فهل اطمأنَّتْ جنوب القارئين في مضاجعهم؟ وهل أشبعتْ دنانيرُ الهوى بطونَ جائعين؟ أملاهينا وحفلاتُنا ورقصاتُنا، استمرَّت حتى الصباح مع «ألمع» «النجوم» وأشهر «الفنانين» الكاسين منهم والعارين، سرَّت المغمومين المحرومين المحزونين؟؟؟ أسئلة كثيرة تجول في الذهن، إجاباتها جاهزة، لا يجهلها ذو لب، أو ذو بصيرة، هذا كلُّه جعل واهنَ الإيمان، سقيمَ العقيدة، زائغَ القلب، يظنُّ أنَّ الخير مات، وأنَّ البغي السيد السائد، أما الأديب المؤمن، فذلك كلُّه لا يثني عزم مضائه، وهو مؤمن أنَّ الله أكبر وأكبر:

والبغيُ مهما طال عدوانُه
فالله من عدوانه أكبر[1]

وأنَّ «كتائب الايمان» سيفُها مشرع:

كتائبُ الايمان قد بايعت
لا فاسق فيها ولا مترف[2]

وملاحظ كثيراً أنَّ شاعرنا دائبٌ على هزِّ القلوب الغافلة، جرف أصحابَها تيَّارُ إلحاد، أو مغرياتُ مادَّة غربيَّةٍ زاحفة، فتاهوا في ظلمات حالكة، وظنُّوا أنَّ سدَّاً لا يُجتاز أُقيم بينهم وبين ربِّهم، ونسوا أنَّه سبحانه قريب من عباده الذين أسرفوا، فوجدْنا الشاعر يخاطب أمثالهم فيقول:

---

(١) ص١٢.
(٢) ص١٨.

لا تقنطوا من رحمة
الرحمن أو مرضاته
فالحلم والغفران
والرضوان بعض صفاته
لا تمتروا في ذاته
فالروحُ من آياته
والصدرُ في أنفاسه
والقلبُ في خفقاته[1]

وهو يرى أن المتع كثيرة في دنيانا، منها ما يتساوى فيه المرء مع مخلوقات الله الأخرى، فيتمتع ويأكل كما تأكل، أمَّا مُتَع المؤمن فشأنٌ آخر، هي باطمئنان القلوب لرضوان الله، هي بشهادتين لا يلج جنَّة الله إلا بهما، هي بصلاة تريح النفس كما قال عليه السلام لبلال، وهي بزكاةٍ تزكِّي النفس، وهي بصومٍ يهذِّب ويربِّي النفس على طاعة الله، وهي بحجٍّ مبرور يمحو كلَّ الذنوب، فوجدْنا الشاعر يقول:

والثغرُ في تسبيحه
والثغر في بسماته
والصوم في رمضانه
والحج في ميقاته
والمؤمن البرُّ الكريم
مصدِّقاً بزكاته
والصالحُ العفُّ التقيُّ
يهيم في صلواته
يرجو الرضى من ربِّه
ليُقيم في جنَّاته[2]

---

(١) ص١٣٨.
(٢) المكان السابق.

وأمَّا مَنْ ران على قلبه ما كان يكسب، أمَّا مَنْ عمي بصرُه وبصيرتُه، أما مَن رأى الشر خيراً والخير شراً، أمَّا مَنْ رافق شيطاناً، وهو يظن نفسَه أحسن صُنْعاً، فنراه يختال وكأنه ناجٍ من يوم تذهل فيه كلُّ مرضعةٍ عمَّا أرضَعتْ، وتضعُ كلُّ ذات حمْلٍ حَمْلَها، فترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ويفرُّ المرء يومها من أخيه، وأمِّه وأبيه، لكلِّ امرىءٍ منهم يومئذ شأن يغنيه، فلا ملجأ يومها ولا منجى من الله إلا إلى الله، وشاعرُنا يقول في أمثال هؤلاء الصمِّ البكم العمي:

والفاجرُ الغرُّ الجهول
يتيه في نزواته
لا يستقيم ولا يسير
على طريق هداته

ولكنْ، إنْ أُغْلِقَتْ أبوابُ الناس، فهيهات هيهات لِبابِ الله أن يُغلق، ولكنَّ جنات الله حُفَّت بالمكاره:

لكنني مؤمن بالله انَّ له
باباً إليه قلوب الخلق تنطلق
إنْ أغلقَ الناس بابَ الودِّ وانصرفوا
فعند ربك بابٌ ليس ينغلق
وإن توعَّرَ دربي في مسالكه
فعند ربِّك من فيض الهدى طرق[1]

فزمننا طغَتْ فيه على السطح أشباهُ قرود، وهو زمن تكالَبَتْ فيه على بني الإسلام أمم إلحاد أو فساد، وهو زمن صدق فيه قول ابن الرومي:

كمثلِ البحر يغرقُ فيه حيٌّ
ولا ينفكُّ تطفو فيه جيفة

(١) ص١٧٥.

أو الـمـيزانُ يُخـفضُ كلَّ وافٍ
ويرفـع كلَّ ذي زنـةٍ خفـيفـة

هو زمنٌ حُرِمَتْ فيه قلوبٌ عميٌ من سعادة، وضاقتْ الأنفس، وصِرْنا نرى وجوهاً كالحة عليها ابتسامات مريضة، تُخْفي وراءها الأضغان والأحقاد، ويعيش المؤمن في جوٍ هذا حالُه في صراع، قلبُه يحترق وهو يرى بني دينه في ضياع، تختفي بينهم مسرات حقَّة، وتنتصر ظاهراً شهوات دنيا:

ضاقت بي النفس حتى كِدْتُ أختنق
واجتـاح زورق عمري الموجُ والغرق
ولـفَّـنـي الصمت حتى كاد يسحقني
كأنـنـي لوجيب الـقـلب أستـرقُ
ومـزَّق الشـكُ نفسي واستبـدَّ بهـا
فلسْـتُ أدري بمـن أرضـى ومَن أثقُ
والـنـفسُ في كَدَرٍ ممَّـا ألـمَّ بهـا
والـقلبُ من شِدَّةِ الأهـوال يحتـرق
وأقـربُ النـاس عن جَهْـلٍ يضيِّعني
وقـلبُـه قُدَّ صخـراً ليس ينـفـلق
والـجـوُّ حولـي لا عطر ولا عَبَـقٌ
وطـالَـمـا لفَّ قلبي جوُّه الـعَـبِـقُ
وأظـلـمَ الـكـونُ مِنْ حولي فوا حزني
قدْ لفَّ كلَّ حياتـي الـليلُ والغسقُ[1]

والمؤمن مطمئن دائماً، انه لن يغيب عن عين الله، أو عن سمعه لحظة، فربُّه عليم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، قريبٌ من حبل وريده، عليم بما توسوس به النفس، سميعٌ لدبيب نملة سوداء، على صخرة صمَّاء، وفي ليلة ظلماء، ومِنْ هذا الايمان الراسخ الذي يتمتع به المؤمن، وجدْنا شاعرَنا يقول:

(١) ص١٧٤ وما بعدها.

أأدعـوك جهـراً أم أنـاجـيك خُفْـيةً
وأنت لزحف «الـظل» و«النمـل» تسمع[٢]

والمؤمن يحرص أن يكون له قلب به يفقه ويعقل ويبصر، طاهر، واجف، مطمئن بذكر الله، وفيه سكينة، فلا يطبع الله عليه، وليس عليه قَفْلُه، يخاف يوماً تتقلَّب فيه القلوب، وانطلاقاً من هذا الايمان الصامد صمود جبال السلط وقمم عجلون، وجدْنا الشاعر يناجي خالقه سبحانه فيقول:

فؤادي في كفَّـيك ليس ينـالـه
سواك فمن للقلب إلَّاك مرجـع[٢]

وتحقُّق نَصْر اللهِ للمؤمنين لا مراءَ فيه، على أن نكون «عباد الله» بحق، وعلى أنْ يكون سلاحُنا في أيدٍ متوضئة أمينة:

ذاك سرُّ الـفـوز الـذي نرتـجـيه
وهـو مفتـاح نصـرنا في «القضية»
ما يفيد السـلاح في غير تقـوى
والـلـيالـي عربـيدة خمـريَّة
يا شهيد الجنـان طبْتَ مُقـامـاً
وتـمـتَّـعْـتَ بالـحياة الـرضيَّة[٣]

وعلى أن يسبق ذلك كلَّه إعداد:

يا أمَّـةً باعَـتْ هُداهـا ومـا
عادَتْ بغـير الـغـثِّ مِنْ كافـر
لا ترتـضـي أمجـادَ أمْسٍ مضتْ
ومـا لهـا في المجـد من حاضـر
صُدَّتْ عن الايمـان فاسْتَسْلَمت
تسـجـدُ للأفـاك والـسـاحـر

---

(١) ص١٧٧.
(٢) المكان السابق.
(٣) ص١٣٦.

من يرتجي نصراً بلا عُدَّةٍ
فما له يا قومُ من ناصرا![1]

بذلك وحده نصنع «بدراً» جديدة في «قدس» الاسلام، تقابل بدراً الأولى العظيمة التي صَوَّرَتْ أحداثَها «الأنفال»:

يا سورةَ الأنفال مَنْ لي بها
قدسيَّةَ الآيات تستنفر[2]

بهذا وحده نفرِّق بين الحق والباطل، ونطهِّر الأرض، ونصون الكرامة، ونحمي الأعراض.

إنَّ المتصفِّح لديوان شاعرنا، يحسُّ أنَّ هتاف «الله أكبر» امتزج بدمه، هذا الهتاف الذي عطَّلَه أدعياءُ الاستسلام، وتجَّارُ الخنوع، فلم يَعُدْ يثير فيهم حماساً ولا عاطفة، فيسمعونه ولا يرتدعون، أمَّا قلبُه فامتلأ أسىً وألما، وكيف لا، والقدس كانت بالأمس نقية طاهرة، فإذا بوجوهٍ كالحةٍ تطلُّ:

يا قدسُ يا محرابُ يا مسجدُ
يا درَّةَ الأكوانِ يا فَرْقَدُ
سفوحُكِ الخُضْرُ رُبوعُ المُنى
وتُرْبُكِ الياقوت والعَسْجَدُ
أقدامُ عيسى باركَتْ أرْضَها
وفي سماها قد سرى أحمدُ
أبَعْدَ وَجْهٍ مُشْرقٍ بالتُّقى
يُطلُّ وجهٌ كالحٌ أسودُ[3]

لقد شُغِفَ شاعرُنا بالجهاد حبَّاً، فهام إعجاباً بالمجاهد الحق:

باركَ اللهُ في الجهاد خُطاه
حين لبَّى الفداء لما دعاه

---

(١) ص١٠٤. (٢) ص١٢. (٣) ص١٣.

طاهــر الـقـلب والـضــميرُ تقيٌّ
صادق الـعَهْــد بالــدِّمــا يرعــاه
حمــلَتْ راحــتــاه ناراً ونــوراً
وبــه المؤمنــون باهــوا وتــاهــوا
فإذا أقــبــلَ «الــزمــانُ» توارى
وإذا زاغــت الــعــيونُ تراه
لو لغــير الإلــه ذلَّــتْ جبــاهٌ
لانْحَنَتْ عنــد راحتيه الجبــاهُ(١)

ووجدْناه يتساءَل: أين ذهب أبطالٌ سطَّروا ببطولتهم صفحات مجدٍ خالد، فكتبوا لتاريخنا الاسلامي صفحاتٍ مشرقةً لا تُجْحدُ ولا تُوارى:

أين سعــدُ وخــالــدُ والـمـثـنَّـى
كلُّهــم بالــدمــاء ينـصــر دينــه
والــســرايا يقــودهــا ابــنُ زيادٍ
رَكِبَ البحــر لا يهــاب سفينــه
وصــلاحٌ كغــرَّةِ الصبــح يرجــو
أن تُعـيدُوا وتـبـعـثـوا حطِّينــه(٢)

فيقطعُ على نَفْسه عَهْداً بأنْ يقتفي أثر أولئك الأَعلام، فالأمهات ما زالت تلد، ولدينا أحفادٌ آمنوا، سائرون على خطا الأكارم الأجداد:

أيهــا المسجــد الجــريح سلام
لك عهــدٌ على المـدى لن نخونه
إنْ عَلَتْ رايةُ الــرســول ودوَّتْ
دعــوةُ الله وهـي فينــا سجينــة
أنْ تسيل الــدمــاءُ حتى تُروِّي
صخرةَ القدس والقبابَ الحزينة(٣)

---

(١) ص٥٨ و ٥٩. (٢) ص٥٥. (٣) ص٥٥ و ٥٦.

إي والله، «دعوةُ الله فينا سجينة»، ولكنها لا بدَّ منطلقةٌ يوماً ومدوِّية، والمسلم لا يرضى يأساً، ولا ينام على ضيم، ويأبى القنوط كلَّه، وعندنا رجال اقْتَفَوا آثار قائدهم العظيم عليه الصلاة والسلام، وهم لا بدَّ محقِّقون ما سَعَوا مِنْ أجْله، وهم لا بدَّ منتصرون.

ومِثْلَ هذا الأدب الاسلامي الذي يبعث على الأمل نريد، أما أدباءُ الشؤم والسواد، الذين اقتَفَوْا آثار شذَّاذ فرنسا أو بريطانيا أو غيرهما، والذين جعلوا أديبنا العربي نَحْساً من النحوس، حتى غدا أشأمَ من البسوس والبارح، ونسوا سماحة الاسلام ويُسْرَه، نسوا أنَّ جباه المؤمنين لا تذلُّ، وعزَّة الاسلام تأبى أن تستكين، نسوا أنَّ القنوط ليس من شيم الايمان، ولا من مزايا الكرام، نسوا أنَّ الأديبَ المسلم مباركُ الصحبة، ميمونُ الطائر والطالع، سعيدُ الجدِّ، مسلماً وجهه كلَّه لله ربِّ العالمين، الذي خلق ورزق وقسم وقدَّر، مؤمناً بأنَّه لا يصيبه غيرُ ما كُتب له أو عليه، ومع هذا كلِّه، مع هذا «التمرُّد» الذي وَجَدْنا نفراً من أدبائنا عليه، لن نتردد أن نقول: لا يزال في أدبنا خير، ولكن، لا غنى لمن رغب الحصول على لآلئه ودرره أن يستجلي أسرارَه، ويستكشف مكامِنَه، عندها، هو واجدٌ أدباءَ أبدعوا أدباً حيَّاً جميلاً مؤثِّراً مشرِّفاً لا محالة، وهو واجدٌ لا بدَّ أساطين بلغاء طرقوا أبواب قلوب اليائسين من أدبائنا وقارئي أدبنا ليقولوا لهم: ما زال في أدبنا خير، ما زال في الدنيا خير، وأمَّة محمد عليه السلام فيها خير، وستبقى كذلك حتى يرثَ اللهُ سبحانه أرضَه وخَلْقه.

لا يمين ولا يسار، بل اسلام

بسم الله الرحمن الرحيم: **﴿وإن تُطِع أكثرَ مَنْ في الأَرض يضلُّوك عن سبيل الله، إن يتَّبعون إلاَّ الظن، وإنْ هم إلاَّ يخرصون﴾**، **﴿وإنَّ كثيراً لَيُضِلُّون بأهوائهم بغير علم﴾**[1].

ولقد مضى ما يقارب القرنَ من الزمان، والغربُ يغتصبُ عقولَ الأدباء والمفكرين، فنشروا الشك والإلحاد، وآمنوا بالفلسفات الجديدة الاقتصادية والسياسية، وهم راكنون إلى ما لأولئك من «تراث»، و«مضربون» عن الانتاج الجديد الصالح، ومُعْرِضون عن محاسبتها ونَقْدها أو تشريحها، حتى فوجئنا بزعزعة عالمنا الاسلامي في ايمانه وعقيدته، وانتشرَتْ فينا علمانية، وهَتَفْنا متحمِّسين لشعارات جوفاء، لا تقود لغير الهلاك.

كثيرٌ من أدبائنا «تفرنج»، وصار افرنجياً أكثر من الافرنج أنفسهم، وشغفتهم حبّاً فلسفات غربية، أو جحود شرقي، حتى بذاءات الغرب والشرق عَشِقوها، فزوَّدونا بأدب ليس فيه أدب، وطلعوا علينا بنتاج كلُّه خرافات وضلالات وسفاهات، وحتى مضحكات مبكيات، ركنوا إلى فساد غربي، وتفسُّخ شرقي، واستسلموا «لأبطالهما»، فقادوا الفارغين من شبابنا إلى الهاوية، هذا النفر من أدبائنا ميئوس منه، لا يرتدع ولو ضربْتَ رأسَهُ «بحجارة من سجِّيل».

لقد وجَدْناه يقلِّد دعوات أدباء الغرب وعلمائه، في دعوة المرأة إلى أخذ حريتها من «عدوِّها!» أخيها، أو زوجها، أو أبيها، فإذا بنسائنا يصبحن متعة للرجال، مستقراً لشهواتهم، يخادعونهنَّ في الخلوات، وأركان الجامعات المظلمة، وتحت ظلال الأشجار النائية، ويجلسون معهنَّ في البارات والفنادق ذوات النجوم الخمسة، يراقصونهنَّ في الحلبات، ويسبحون معهنَّ في مسابح الهيلتون والشيراتون وماريوت، والهوليدي إن، وبالاس، وعلى شواطىء الأنهار، وثنيات البحار والخلجان «الثائرة!!»، كلُّ ذلك دون ارتباط بحياة زوجية

---

(١) الأنعام ١١٦ و ١١٩.

وسكون عائلي، واكتشفَتْ نساؤنا بعد تجارب مريرة وأيام عصيبة، أنهنَّ غَدَوْنَ ورود ذابلة داستها المادة، فشكت وصرخت ولا معتصم، وبكت وندمت ولات ساعة مندم، ولم يهتمَّ بمأساتها إلَّا مسلم قطر دماً قَلْبُه، إلَّا من اهتمَّ بأمر أمة الاسلام، وإلَّا من ظلَّ في قلبه بقيةُ إحساسٍ أو غيرةٍ أو حياء.

. . . وانهارَتْ سعادةُ بيوت، وضاعتْ أمومةٌ حانية، ولكنْ ظلَّ ساقطون عبر شاشات صغيرة وكبيرة ينادون: تحيا حرية المرأة!!، ولْيَعِشْ الحب!!، ظلوا يدافعون عن اباحية الرومان وقدماء اليونان وفارس، فشُغِلْنا عن العمل والانتاج، والحياة الجادَّة، ظلُّوا يباركون نظريات الجنس الفرويدية اليهودية، ظلُّوا ينادون بمساواة الرجل بالمرأة كما فعل الوجوديون السارتريون، والشيوعيون الذين أحيوا مذهب القرامطة، الذي دعا إلى حرية مطلقة في الأموال والنساء، وظلُّوا يصرُّون أن يبدأوا من حيث انتهى «السادة» الشرقيون أو الغربيون، وظلوا يُحْيون دعوةَ أبيقور الذي دعا إلى الاستمتاع واللذة، حتى رأى حديقته تغصُّ برجال ونساء، وطبَّقَ فِكْرَته في صورة حيوانية، فعدل أبيقور عن فكرته، لكنَّ الأبيقورية ظلَّتْ عنواناً على الاستمتاع الذي لا يليق بكرامة الانسان.

نريد من أدباء أمة الاسلام أن يقفوا عند حدود النظام الاجتماعي والاخلاقي في الاسلام، نريد أن يَعْتَبرَ أدباؤنا أدعياءُ التحرر، روَّادُ الشك، تجارُ الخمر، بتجارب أمم الرذيلة، فهل شعراء أمَّة الاسلام فاعلون؟ هل كتَّابُنا مستيقظون ملتزمون؟ هل فنَّانونا مرتدعون؟؟ وأسأل ربي مخلصاً أن يهدي صفوة «مفكِّرينا» و«علمائنا» سواء السبيل، فكثير منهم تائه ولا يدري. حزني وأنا أرى أدباء أمة الاسلام ينخدعون بقشور التمدُّن حُزْنُ مَنْ ذُبح واحدُها في حجرها!!، لم يعد الحقُّ معمولاً به، وأصبح باطلُنا لا يُتَناهى عنه، وصار الموت سعادة، وبطنُ الأرض خيراً من ظهرها، والحياةُ مع الظالمين الفاسدين المفسدين جرماً.

نعم، انساق كثير من أدبائنا وراءَ سَالِقَة المغْضوب عليهم والضالِّين، وتظاهروا بالغيرة على «تقدم» أدبنا و«تحرُّره»، لكنَّهم أضْمَروا في القلوب فحيح أفاعٍ، ومَكْرَ ثعالب، ومسكنةَ تماسيح، بعد أنْ طاف شرقيون وغربيون عالَمَنا الاسلاميَّ، مشرقَه ومغربَه، زارعين فيه الفِتَن، حتى باضَتْ وفرخَتْ. وَجَدْنا أدباءَ

مسلمين لم ينشُروا من الأدب إلا الغثّ الممجوج، عافَتْه النفوسُ الزكيةُ والطباعُ السويّة، باعوا ضمائرهم رخيصة، ومجَّدوا أدباً قام على التشكيك بالقيم، والغمز واللمز بالمبادىء والمعتقدات، فنشروا آداباً بلا آداب، هي في نظر المخدوعين شهد سائغ، ولكنها في نظر الأذكياء الأسوياء الأتقياء حميم يقطع الأمعاء، ولَشُرْبُ زيتِ خروع ألذُّ وأشهى لو كانوا يفقهون.

بعضُ «التغريبيِّين» من أدبائنا غربيٌّ أكثر من الغربيين، ومن «التشريقيين» كذلك نفرٌ شرقيٌّ أكثر من الشرقيين، تراه يتتلمذ عليهم في مناحي حياته كلِّها، في آرائه، وفي أفهامه، حتى في طرائق تفكيره، بل حتى في جسمه ولبسه، فهو يُطْلِقُ شَعْرَ رأسه وشعر لحيته الافرنجية، يهملها من غير رعاية أو تسريح أو تشذيب، ويلبس بنطال «الجينز» كرعاة البقر، حتى لسانُه، نصفُ عربي ونصفُ أجنبي، فترى الناس الذين عافاهم الله يتقون هراءهم ويجتنبونهم، أمَّا صِبْيَةُ الحيِّ فيقتفون إثْرَهم يتفرجون!!، ظنوا أنهم بذلك بلغوا مجداً ـ ومن أقصر سبيل ـ، ولكنك ـ والحمد لله رب العالمين ـ لا تعدم أن تسمع رزيناً هداه الله وأنار بصيرته يقول لأحدهم ما قال الشاعر:

لا تطلب المجد إنَّ المجد سلَّمه

صعب وعش مستريحاً ناعم البال

من أدبائنا نفرٌ تبنَّى شعارات شرقية أو غربية مضلِّلة، هؤلاء لا يُرجى منهم خير، ومن رجا خيراً منهم فقد كدم في غير مكدم، واستسمن ذا ورم، وقد سفَّه واعون أحلامَهم، وبيَّنوا عَرَجَهم لجماهير أمتنا، فشكا أولئك المقلدون إلى سادتهم أمم الفساد، فكانت شكواهم كشكوى الجريح إلى العقبان والرخم. صاغوا أدبهم وِفْقَ قوالبَ أدبيَّة فنيَّة شرقية أو غربية، متخذين أصحابها أئمة أدب وأساطين نقد، ناسين أو متناسين أنَّ لأدب الاسلام صورة خاصة مميزة، وشخصية مستقلة، وهو براء من كل ألوان الشِعر الجاهلي، قديمه وحديثه على حدٍّ سواء، جاهلي ما قبل الاسلام، وجاهلي القرن العشرين، أدبنا الاسلاميُ إسلامي وكفى، وهو يسعى أن يغرس بذور ايمان، ويسعى أن يُذيع أدباً جميلاً راقياً مهذَّباً في نفوس الأجيال، ونحمد الله ربَّنا العظيم أنْ وجَدْنا شاعرنا العظم

لا شرقياً ولا غربياً، لا اشتراكياً ولا رأسمالياً، وانما وجدناه حنيفاً مسلماً وما هو من المشركين، وجدْناه يجود بشِعر كأنَّما ألفاظُه رصاصات، وكيف لا يكون كذلك، وقد رأيْناه ينهج نهج شاعر الاسلام الأول، وجَدْناه يسير على خُطا شاعرٍ قال فيه عليه الصلاة والسلام: «لَشِعْرُك أشدُّ عليهم من وقع النبل»، وجَدْناه يتأثر بشاعر يرى شعراء الكفر يناوشون الاسلامَ ورجالَه، فيُخْرِجُ لسانَه قائلاً للرسول عليه السلام: هذا لساني يفلقُ الصخر ويحلقُ الشَعر، هذا هو الشاعر الذي سار شاعرُنا على خطاه، فوجدْناه يقول:

ورايةُ الشعر للإسلام أرفعها
كالشمس يُشرق مجلوّاً بأوزان!
يعيش حسَّانُ في قلبي وفي قلمي
فهلْ بلغْتُ بشعري روح حسان؟[1]

ذلكم هو حسان، شاعر الاسلام الاول، وشاعر الرسول عليه السلام بلا منازع.

إنَّ المتصفِّح لأشعار شاعرنا يلمس ـ وبوضوح ـ أنَّ تأثُّره انما كان بالقرآن الكريم ـ كتاب الله الخالد المحفوظ ـ، لم يكن تأثُّره بشرقي ولا بغربيّ، فاقتبس من القرآن ما اقتبس، وضمَّن أشعاره بعضاً من مفرداته وتعابيره، وما أكثر ما نجد مثل هذا في شعره، من ذلك:

من نداء في الغار يشرق بالنو
ر ويسري في الأفق عبر البطاح
سبحتْ فيه مكةُ إذْ تجلَّى
نور ربِّ المشكاة والمصباح[2]

وليست بعيدةً عن أذهاننا الآيةُ الكريمة: ﴿**مَثَلُ نوره كمشكاة فيها مصباح**...﴾[3].

---

(١) ص٤. (٢) ص٤٦. (٣) النور ٣٥.

ومن ذلك:

وَقَفَ الشِعْرُ حائراً في ذهول
وتوارى يرتدُّ وهو حسير[1]

وليست ببعيدة عن أذهاننا الآية الكريمة ﴿**ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير**﴾[2] وكذلك قال شوقي «وأعظم من حيرة الشعر في فمي»[3]، كذلك قَوْلُ شاعرنا:

مدفع «بالرستاق» و«الحزم» مالها
كأعجاز نخلٍ خاويات جواثم[4]

متأثر بقوله سبحانه وتعالى: ﴿كأنَّهم أعجاز نخلٍ خاوية﴾[5].

وقوله:

هتف الظالم الغشوم تقدَّمْ
وطأ الحقَّ في مرابع زمزم
واهدم البيت أيها الفيل
ففي إثْرِكَ الخميس العرمرم
ومضى الفيلُ زاحفاً لا يبالي
بشيوخٍ من هاشم أو جرهم[6]

فهو اشارة إلى القصة القرآنية المعروفة، قصة أصحاب الفيل، الفيل الذي جهَّزه أبرهة الحبشي ليهدم الكعبة، ويصرف الناس عن بيت الله العتيق، ولكنَّ الله سبحانه صرف عن بيته كيد الفاسقين، وقد أشارت إلى ذلك آيات سورة الفيل.

هذا نهجُ شاعرنا العظم، وهذه سبيله، يدعو إلى الله على بصيرة، فلقد أدرك بثاقب البصر والبصيرة، أنْ لا خيرَ في شرق ولا في غرب، وانَّ ارتجاء نصرٍ

---

(١) ص١٢٦.
(٢) الملك ٤.
(٣) الشوقيات جـ٣ ص١٤٠.
(٤) ص١٣٠.
(٥) الحاقَّة ٧.
(٦) ص١٤٣.

من أعداء الله كالمرتجي ماءً من سراب، أو كالمرتجي وُدّاً من أفعى، وأنَّ من يهجر القرآن ليقتات على فتات **الأمم**، كمن يدع النبع الفيَّاض العذب الثرثار، ليرتشف قطرات ملوَّثة من حُفَرٍ صنعتْها الأقدام، فَنَصْرُنا لن يتأتَّى بغير القرآن، ونكباتُنا وهزائمنا المتتابعة لن تكون ذريعة لنبذ الدين كما ذهب حمقى ضالُّون، فالقرآن، والقرآن وحدَه، ينير لنا السبيل، سبيلَ الكرامة والعزِّ، ولن نذوق طعماً لنصر ما لم نستغفر، ما لم نَعُدْ إلى الله الناصر، بعدها لن يغلبَنا أحد، وصدق شاعرنا إذ يقول:

ولئـن داهَـمَـنـا خطبٌ فلن
نهجـر القـرآن . . . أو ننسى الإلـه
وإذ الـظلمـة طافـت بالـدُّنـا
أشـرق الفجر علينا . . . فطواها!!(١)

فوا عجباً لصغار العقول، كيف يجهلون أننا في ساعات الخطوب أحوجُ ما نكون لأنْ نذكر الله فيذكرنا!!، فإنَّما النصر «في الشرعة السمحاء» كما قال شاعرنا:

قل للذين أرادوا هَجْـرَ شرعـتـهـم
النصر في الشرعة السمحاء لو عقلوا(٢)

وسَلْ المتفرنجين، **شرقيَّهم وغربيَّهم**، سيقولون: الدين رجعيَّةٌ وتأخُّر! هَجَرْنا منابعَ الخير فينا، وصرْنا كأيتامٍ في مأدبة لئام، نتطفَّل على موائد الشرق والغرب، فأَضَعْنا الخير الخير، وشاع فينا كثيرٌ يجرُّ علينا غضبَ الله:

قد هجـرْنـا منـابـع الخير فينـا
وارتـوينـا من كل نبـعٍ مكـدَّر
وطمسنـا مشـاعـل النـور جهـلاً
وتـبـعْنـا الضـلال ينهى ويأمـر

---

(١) ص١٢٢.
(٢) ص٤٠.

والجموع الحيرى يضلِّلها «الكفر»

فتـلهـو بكـلِّ حقٍّ وتـسـخـر

لا تبـالـي إنْ سادَ فيهـا لئـيم

أو تمـادى منـافـق وتـجـبَّـرْ

كل يوم ضحـيَّة وشـهـيد

أو طريد في الأرض أشعث أغبـر[1]

رَكَنَّا إلى أننا كثير، وأننا مئات ملايين، ونسينا أنَّ النصر لا يكون بكثرة، فمن قبلُ أعجبْتنا كثرةٌ يومَ «حنين»:

هل نُصِرْنا «بالعدِّ» يا ليت شعري

في ضفـاف اليرموك والأُسْدُ تزأر؟

أم نُصِـرْنـا بعـدَّةٍ وسـلاحٍ

وسـلاح العـدو أمضى وأكثـر؟

أم دَحَـرْنـا في القـادسية جيشاً

بخميسٍ «مهلهـل» مستـأجـر؟

ورفعْنا شعارات فارغة لا تُغْني، ناديْنا باقليميات وعصبيات ما أنزل الله بها من سلطان، وأقحمْنا في أفْهام الأمة المحمدية إلحاداً شرقيًّا أو مكراً غربياً، وتغافَلْنا أنَّ النصر باقٍ بعيداً حتى نعود وكما كنَّا... جنداً لله بحقّ:

أم بجـيشٍ شعـارُه دون خوفٍ

لا يهـاب الحمـام: «الله أكبـر!»

مَزَّق الـظلمَ زحـفُـه يتـحـدى

جحفـلَ الـظلم، بالعقيدة يزخـر

علَّمَ الفـرس والعُـروش تَهـاوى

أنَّ عَرْش القلوب أنقى وأطهـر[2]

«عرش القلوب!»، ما أوقعه في النفس وما أصدقه! بل ما أحوج الأمة إلى

---

(١) ص٦٢ وما بعدها. (٢) ص٦٤.

مثله! ما أحوج أمتنا إلى «عُمَر» جديد، يلتفُّ بعباءة ويستلقي تحت ظلِّ دوحة، ترعاه عين الله، فيحرسه «عرش قلوب»، ولقد أحسن حافظ ابراهيم حين قال:

وراع صاحب كسرى أنْ رأى عمراً
بين الرعية عطلاً وهو راعيها
وعهدهُ بملوك الفرس أنَّ لها
سوراً من الجند والأحراس يحميها
فوق الثرى تحت ظلِّ الدوح مشتملاً
ببردة كاد طول العهد يبليها
فهان في عَيْنه ما كان يُكْبره
من الأكاسر والدنيا بأيديها
وقال قولةَ حقٍّ أصبحتْ مَثَلاً
وأصبح الجيلُ بعد الجيل يرويها
آمنت لمَّا أقمت العدل بينهم
فنمت نومَ قرير العين هانيها

وشتان شتان بين «عرش القلوب»، وعرش الجنود.

قومُنا «استوردوا» التقاليد والمبادىء، عدا عن اللباس والطعام، ومن أعداء الله، وتخاذلْنا وأضعْنا الحمى، واستبدلْنا حمية جاهلية بحمية الدين، التي بها ساد الأجداد، فسطَّروا صفحات مجد:

يا لقومي ماذا دهانا لنمسي
أمَّةً همُّها الفتاتُ المبعثر
لو سَلَكْنا درْبَ العلا لَبَذَرْنا
وزرعْنا في كلِّ أرضٍ غضنفر
وحمينا العرين من كلِّ ظلمٍ
ودحَرْنا العدوان والظلم يُدحر

ولـمـاجَتْ ساحـاتُنـا بالسـرايا
يحمـل «الراية المنيعة» جعفر![1]

﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[2]، يزور خروتشوف أسوان، ويخطب في جماهير الأمة «المسلمة!»، ويقول في حفل افتتاح سدِّها بخبث وحقد: «نحن لا نقدم العون من أجل وحدة عربية، وانما من أجل المبادىء اللينينية العظيمة!»، وكأنَّ السامعين «لينينيون» كلُّهم وملحدون، مِثْلُ هذا جدير أن يحرِّك أوتارَ قلبِ كلِّ مسلم، فكيف به لا يحرِّك أوتار قلب شاعرٍ تعلَّق فِكْرُه وحسُّه ودمُه بشعار «الله أكبر!»، فوجَدْناه يقول في قصيدة معبِّرة صادقة العواطف عنوانها «مهلاً . . . يارفيق!!»[3]:

قل لضيفٍ في ربـوع النيل تاهـا
وتـغـنَّـى بفـخـارٍ ـ وتبـاهـى
نحـن لا نرضى بغير المصـطفى
أو نرى فينـا إمـامـاً غير طه

الله الله!!، أُقسم أنني ما ان قرأت البيتين حتى أحسست وكأنَّ شَعْر جسدي غدا ابراً انتصبَتْ، شعرْتُ وكأنَّ حرارةً أخذَتْ تسري في أوصال الجسم، خُيِّل لي وكأنَّ سلكاً مكهرباً اتصل بجسدي، كنت قبلها يغشيني شيء من نعاس، فصرتُ بعدها يقظاً متوثباً متنبِّهاً، حتى خُيِّل بأن عينيَّ جحظتا، وحقَّ لمثل هذا الشعر أن يحرِّك أوتار قلوب، وحقَّ لمثله أن ينبِّه راقدين، حقَّ لمثله أن يثير في نفس مسلم حميةَ اسلام ما زالت في القلوب، فماذا قلتُ في نفسي؟ قلت وقلت الكثير، أخفيته، ولكنَّ اللسان ـ كعادته ـ أبى إلَّا أن يبوح بعبارة قصيرة قصيرة، ولكن فيها ما يكفي ويُفْهِمُ مَنْ أراد أنْ يفهم: «أمتنا بخير». ووقف بصري حائراً، ولكن بصيرتي راحت تتابع القراءة:

وإذا حدَّثْـتَـنَـا عَنْ شِرعـةٍ
حقَّقْتَ في أرضكم عزاً وجـاهـا

---

(١) ص٦٥.
(٢) الأنفال ٣٠.
(٣) ص١١٩ وما بعدها.

فَلَقَـدْ أشْـرق فينـا شِرْعَـةٌ
مِنْ سنـا القـرآن لَنْ نرضى سواها
يا لتـرتـيلة برٍّ وهـدى
ملأتْ منَّـا قلوبـاً وشـفـاهـا
فتـواضـعْ ضَيْفَـنـا في أرْبُـعٍ
خصَّهـا الله . . . وبـالنيل حبـاهـا
واخـفض الـرأس قليلاً أنـت في
عدوة الأبرار. . . عاشوا في حماها

وليتمعن القارىء قوله «لن نرضى سواها»، «فتواضعْ ضَيْفَنا»، «واخفض الرأس» فسيحسُّ بعزة الايمان وكرامة الاسلام، إن كان معافى.

وذهب «الزعيم!!» «الخالد!!» أبو خالد!!، أخذه الله إليه، وهل من الله مهرب إلا اليه؟؟، وذهبَتْ مبادىءُ لينين وزمرته عن أرض الكنانة أدراج الرياح، وطاشت سهام «خروتشوف» وأحفاده، وانقبرتْ أصنامُ الالحاد، وظلَّ «الله أكبر» عالياً مدوِّياً في أسوان وغير أسوان، لا تقرُّ إلَّا به العيون، ولا تطمئنُّ إلا له القلوب:

لا تظنَّ الـشـعبَ في مصـر غدا
بلشـفـياً أو «عميلاً» في ربـاهـا
نحـنُ منَّـا بأكـالـيل الـعُـلى
توَّجَ المجـدُ رؤوسـاً وجبـاهـا

ولْيتمعنْ القارىءُ كذلك قولَ شاعرنا «نحن منَّا توَّج المجدُ رؤوساً وجباها»، نعم، منَّا، من أمة الاسلام، من أمَّة القرآن والتوحيد، ألا يرى القارىء في هذا عزَّةً ايمانية، تَخْرُسُ أمامَها عزَّةُ الاقليميات، التي عَبَدْناها من دون الله؟؟؟ نعم، منَّا وبلا كبرياء، وبلا فخر، وبقلب يكاد ينفطر ألماً، هَجَرْنا الدين، وأدرْنا الظهور لشرع الله، فَضِعْنا، وأذلَّنا عدوٌّ متربص، وشَمَتَ بنا يمين حاقد، وأهاننا يسارٌ خبيث ماكر، طَوَيْنا راية جهاد شرَّفَتْنا، وتغنَّيْنا بسلامِ استسلام:

جَبَلَ الـنـور في الـقـلوب ظلامُ
مُذْ هَجَـرْنـا مشـاعـلَ الأنـوار
ضاع قومي في الحـادثـات وذلُّـوا
وتـمـادوا في خسَّـةٍ وصـغـار
بينَ ذُلٍّ يُمْـليه سوطُ يمـينٍ
وهـوانٍ يُمْـليه سوطُ الـيسـار
أسكـرتهم خمـرُ الضـلال فبـاتـوا
في «ضـياعٍ» بصحبـة الخمَّـار
وطـووا رايةَ الـجـهـاد سُكـارى
وتلهَّـوا بالـطبـل والمـزمـار[1]

والمسلم دائماً يقف على أرضٍ صلبة، فلا يركنُ إلى أمم الضلال والفساد، شرقيّها أو غربيّها على حدٍّ سواء، وسيظلُّ قولُ «أمير!» الشعراء مخاطباً الرسول عليه السلام: «الاشتراكيون أنت إمامُهم»[2] لا نصيب له من واقع، فللإسلام نظامُهُ وأفكارُه وعقيدتُه ومنهاجُه، هو مِنْ وضْع خالقٍ عظيم لطيفٍ خبيرٍ بما يُصْلحُ أمورَ عباده، ليناسبَ مخلوقاتِه في كلِّ زمنٍ وكلِّ أرض، حتى تأتي ساعةٌ لا بدَّ آتية، فيرث سبحانه أرضَه ومَنْ عليها، وشتَّان شتَّان بين منهاج الله العظيم، وبين منهجٍ وَضَعَهُ بشر، شرقيون أم غربيون، يساريون أو يمينيون، فكلاهما يريد لأمَّة الاسلام الموت، ليسكرَ على الأشلاء، ويرقُص على الأنقاض، هذا ما يجول في خاطر المسلم، وهذا ما جال في فكر شاعرنا، فوجدْناه يقول:

كان الـيمـينُ لنـا ذُلاً يمـزِّقُـنـا
وفـي الـيسـار لنـا بؤسٌ وويلات[3]

ومن قبله وجدْنا شاعراً آخر من فلسطين، هو المحامي الشرعي عمر قشير يقول: «الاشتراكيون لَسْت إمامهم» ويقول «والرأسماليون لست ظهيرهم».

---

(١) ص١٦٠ و ١٦١.
(٢) الشوقيات جـ١ ص٣٤.
(٣) ص٢٠٥.

ومثلُ هذا بات راسخاً في القلوب، وبات له جذور، أذكر ومنذ ثلاثين سنة، حين كنت يومها تلميذاً صغيراً، أنَّ أستاذنا يومها الشيخ محمد سعيد الجمل، خطيب المسجد الأقصى هذه الأيَّام، قرَّر علينا حِفْظَ أبياتٍ لشاعر من فلسطين، هو اليوم الطبيب يونس شناعة، أذكر منها:

متى الاســلام في الــدنيا يسـود
ويُشْــرقُ بيننــا الفجــر الجــديد
متــى يا ربُّ ترحــمــنــا فإنَّــا
أضــرَّ بهــا الـتخــاذلُ والقُعــود
وأمــريكــا تخــدِّرُنــا ليبــقــى
لهــا بتــرولُنــا الكنــزُ الفــريد
وروســيَّا تلين لنــا ولــكــنْ
وراء الــلين داهــيةٌ حرودُ

كان قد مضى على رحيل اللاجئين الفلسطينيين يومها سبع سنوات، وكانوا حينها يهيِّئون حقائبهم ليعودوا، كانوا قد صدَّقوا ما سمعوا من المذياعات: «يا فلسطين جئْنا لك، جئْنا جئْنا لك جئْنا لك»، كانوا يطربون ويتفاءلون حين يسمعون: «عائدون، إننا لَعائدون»، كانوا يردِّدون: «أنا لن أعيش مشرَّداً، أنا لن أظلَّ مقيَّداً»، وكانوا يغنون:

فوق أرضــي لن يمــرُّوا
وبــهــا لن يســتــقــرُّوا

كانوا يمنُّون النفس ويقولون:

لن ينــام الــثــأرُ في صدري وإن طال مداه

«ومرَّت الأيام» كما قالت العجوز التي أطربتْ!، وأسكرتْ!، وخدَّرتْ! وانقضَتْ سنون، ودارت أعوام، فتركوا الخيام، وأُسْكِنوا في بيوتٍ من حجر، وما عادوا يزرعون الخضار تُؤتي أُكُلَها في أيام، وصاروا يزرعون الزيتون والتين، حيث أدركوا أنَّ «الاقامة» ستطول، ولكنهم لم يجيئوا إلى فلسطين بعد، وزِدْنا

على فلسطين بلاداً أخرى فوْقَها، لم يعودوا بعد انقضاء خمس وثلاثين من الساعات أو الليالي أو السنوات، وعشْنا وما زلْنا مشرَّدين، ومقيَّدين، ومرُّوا فوق الأرض واستقرُّوا واستقرُّوا، ونِمْنا ونِمْنا، حتى أزعج «شخيرُنا أمم الأرض»، لم ينفعْنا تشدُّقٌ بأمجاد، ونام الثأرُ في الصدور وما زال، وعاش الذي عادانا بسلام وهناء.

وتحقَّق ما توقَّعوا، ولكن، بعد لأيٍ وانتظار، فلقد شُغلنا عن قرآنِنا بغناء، كما سنبيِّن فيما يأتي.